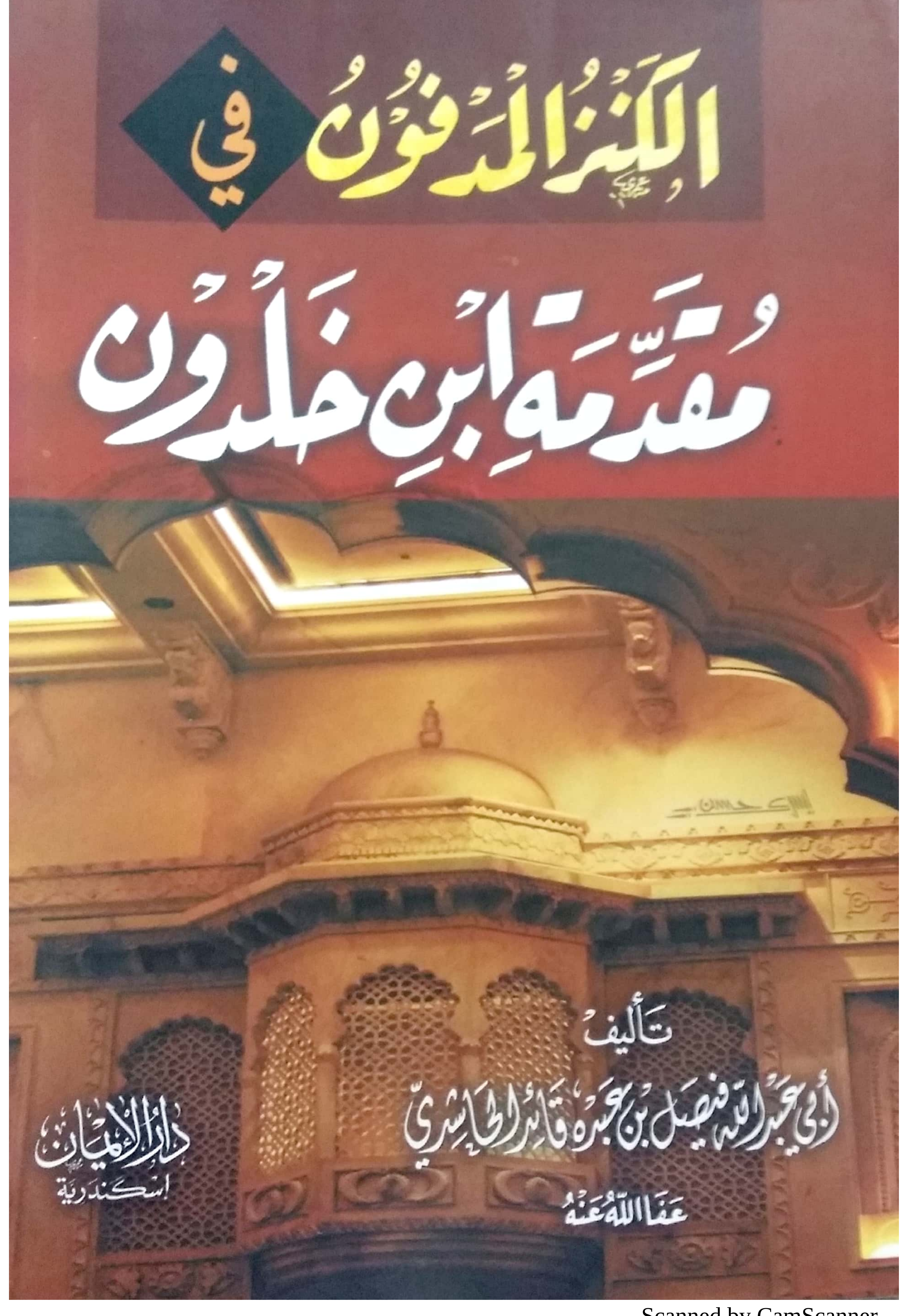


الكنز المدفون في
مقدمة ابن خلدون
تأليف
أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي
عفا الله عنه
دار الإيمان
اسكندرية



اسم الكتاب : الكنز المدفون في مقدمة ابن خلدون

إعداد الشيخ: فيصل بن عبده قائد الحاشدي

رقم الإيداع : ٨٤٦٦ / ٢٠١٤

نوع الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : ٨٠

القياس : ١٧×٢٤

تجهيزات فنية : مكتب دار الإيمان

أعمال فنية وتصميم الغلاف أ. يسري حسن

٢٠١٤

الإدارة

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع

١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.

تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

المبيعات

دار القمة لتوزيع الكتاب والشريط والكمبيوتر

١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.

تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٢٢٢٠٠٢

E-mail

dar_aleman@hotmail.com

المُقَدِّمة

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشْرَفِ المُرسَلين.

أمَّا بَعْدُ، وقفتُ على «مقدِّمة ابْنِ خَلْدُون» «وُقُوفَ شَحيحٍ ضَاعَ في التُّرْبِ خاتَمُهُ»(١)، وهالني ما فيها من علْمٍ فريد لم يُسْبَقْ إليه(٢)، والناسُ بَعْدَهُ إنَّما هم عيالٌ عليه وأدهشني راقِمُها بما أبدع وأمتع، فكلَّما انتقلتُ منْ باب إلى آخرَ، ازدوتُ إكباراً وإجلالاً لهذا الإمام الفَذِّ، ومقدِّمتُهُ تَشْهَدُ بعُلُوِّ كَعْبه، ولله دَرُّ الإمام المقريزيِّ حين قال: «مقدِّمتُهُ لم يُعملْ مثالُها، وإنَّهُ لَعزيزٌ أنْ يَنالَ مُجْتهدٌ منالَها؛ إذْ هي زُبْدَةُ المعارف والعلوم، ونتيجةُ العقول السَّليمة والفُهُوم، تُوَقِّفُ على كُنْه الأشياء وتُعرِّفُ حقيقَةَ الحوادث والأنباء، وتُعَبِّرُ عَنْ حَالِ الوُجُود، وتُنبئُ عَنْ أَصْلِ كُلِّ مَوْجُود بلَفْظٍ أبْهَى مِنَ الدُّرِّ النَّظيمِ، وألْطَفَ منَ الماء مَرَّ به النَّسيمُ».

---

(١) عَجُزُ بَيْت قاله البهاء زُهَيْرٌ -رحمه الله-، انظر «ديوانه» (٤٦٨)، وأوَّلُهُ: «وَقَفْتُ على ما جاء في كتابكُم».

(٢) مقدِّمة ابْن خَلْدُونَ تضمَّنَتْ علْمًا لَم يُسْبَقْ إليه، ألاَ وَهُوَ «علم الاجتماع»، ويُعْتَبرُ ابْنُ خَلْدُونَ مُؤسِّسًا له وواضعَ لَبناته الأولَى، ونسْبَةُ هذا العلم إليه كنسْبَة العَرُوض للخليل -رحمه الله- و«علم الاجتماع» عَلْمٌ مُسْتَقلٌ بذاته، ويتَّصلُ بالأدب اتِّصالاً مُكَمِّلاً فهو -بحقٍّ- وحليَةُ المُتأدِّب»، متى عَرِيَ منْهُ الأديبُ، كان عَيْبًا ونَقْصًا.

والسُّؤالُ هُوَ: ما هُوَ علْمُ الاجتماع؟ «علْمُ الاجتماع: يَدْرُسُ الظَّاهرةَ الاجتماعيَّةَ الَّتي هي قواعدُ تنظيم العلاقات بَيْنَ أفراد المجتمع، وتتعلَّقُ بالسِّياسة الحُكْمِ والاقتصاد، وتَوْزيعِ الثَّرْوة والاستهلاك، وشؤون الأُسْرَة: منْ زواج، وطلاق، وقرابة، وميراث، وتنظيم القضاء والعقوبات، وشُؤُون الدِّين وتعاليمه، والأخلاق، والتَّربية، واللُّغة، والفُنُون، والهَدَفُ منْ علم الاجتماع: هُوَ الكَشْفُ عَنِ القوانين الَّتي تَخْضَعُ لهذه الظَّاهرات الَّتي تسيرُ حَسبَ قوانين ثابتة» انظر «المَقِّدمة» (ص٧).

إنَّها مقدِّمةٌ عزيزةُ الوُجُود، تلقَّاها النَّاسُ بالقَبُول، وظَفرَ بها أئمَّةُ الكُفْر، وطاروا بها كُلَّ مطار، وكتبوا حَوْلَها الدِّراسات والبُحُوثَ، واتَّخذوها دليلاً لبناء حضاراتهمْ، فسار بهمُ الرَّكْبُ وفَقَدْنَا، «أحقُّ الخَيْلِ بالرَّكْضِ المُعَارُ»[1] فلا جَرَمَ؛ «فَأَزْهَدُ النَّاسِ في العالمِ أهْلُهُ وجيرانُهُ»[2].

ولما رأيتُ الهمَّةَ قَصُرَتْ عَنْ قراءة المُطوَّلات؛ عَمدَتُ إلى كَنْز المُقَدِّمة، استخلصهُ استخلاصَ الذَّهَب منْ عُرُوق الجبال: و«مَعَ المَخْضِ يَبْدُو الزُّبْدُ»[3].

وسمَّيتُهُ: «الكَنْزُ المَدْفونُ في مُقدِّمة ابْنِ خَلْدُونَ»، فدُونكَ: «حبيبٌ جاء عَلَى فاقَة»[4]، فـ«خُذ الأمْرَ بقَوابله»[5].

جَرَى القَلَمُ بما تقدَّم.

وكتبه

أبو عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي



---

(١) «مجمع الأمثال» (١/ ٢٠٣)، والمُعارُ منَ العارية، أيْ: لا شَفَقَةَ لك على العارية؛ لأنَّها لَيْسَتْ لك.

(٢) «مجمع الأمثال» (١/ ٣٥٣).

(٣) أي: إذا استُقْصيَ الأمْرُ، حَصَلَ المُرادُ انظرْ «مجمع الأمثال» (٢/ ٣٠٨).

(٤) «مجمع الأمثال» (١/ ٢٢٧)، وهو مَثَلٌ يُضْرَبُ للشَّيْء يأتيك على حاجة منك وموافقة».

(٥) «مجمع الأمثال» (١/ ٢٥٦)، وهُوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ للحَثِّ على استقبال الأُمُورِ قَبْلَ أنْ يَفُوتَكَ تَدْبيرُهَا.

تَرْجَمَةُ ابْنِ خَلْدُون(١)

اسْمُهُ ونَسَبُهُ ومَوْلِدُهُ:

هو عَبْدُ الرَّحمن أبو زَيْد ولِّي الِّدين ابْنُ خَلْدُونَ، اشتهر بابْنِ خَلْدُون نسْبةً إلى أوَّلِ مَنْ دَخَلَ الأنْدلُسَ مِنْ أجْدَاده، وهو خالدُ بْنُ عُثْمَانَ الَّذي كان يعرفُ فيما بَعْدُ باسْم خَلْدُونَ على عادةِ أهْل الأنْدَلُسِ، إذْ كانوا يُضيفون إلى الاسم واواً ونُونًا تعظيمًا لأصحابها.

وكان ابْنُ خَلْدُونَ يُضيفُ صفةَ الحَفْرَ فيِّ على اسْمه؛ لأنَّ أُسْرَتَهُ تَرْجِعُ إلى أصْلٍ يمانيٍّ حَفْرميٍّ، يتَّصلُ نَسَبُها بالصَّحابيِّ وائل بْنِ حُجْر -رضي الله عنه-.

وُلَدَ ابْنُ خَلْدُون أوَّلَ رَمَضَان سَنَةَ اثنتين وثلاثين وسَبْعمائة بتُونسَ (٧٣٢هـ).

نَشْأَتُهُ وتَلْمَذَتُهُ:

نشأ ابْنُ خَلْدُونَ وتعلَّم في تُونسَ، وبدأ في طَلَبِ الْعِلم في سِنٍّ مُبَكِّرة، فأخذ عن أبيه الَّذي كان عالمًا، وعَنْ عَددَ منَ العُلَماء المعاصرين له، محفظ القرآن، ، والشَّاطبيَّتَيْن، ومُخْتَصَرَ ابْنِ الحاجب الفرعيِّ، والتَّسْهيل في النَّحْو، والمُعَلَّقات، وحماسة الأعلم، وشعْرَ حبيب بْن أوْس، وقطعةً منْ شعْر المُتَنبِّي، وسقط الزند للمعَرِّى، وغَيْرَهَا. وقرأ الكُتُبَ الكثيرةَ على مشايخِ عَمْرِه، وقرأ

(١) التعريف «ترجمة المؤلف لنفسه» «الضَّوء اللاَّمع» للسَّخاويِّ (٤/ ١٤٥-١٤٩)، «وجيز الكلام» للسخاويِّ (١/ ٣٨٥)، «أنباء الغمر» (٥/ ٣٢٧-٣٣٢)، و «نفح الطِّيب». للمَقْريزيِّ (٩/ ١٩٢) البدر الطَّالع» للشَّوكانيِّ (١/ ٣٣٧-٣٣٩).

القراءاتِ السَّبْعَ، وسَمِعَ الحديثَ، وتفقَّه، واعتنى بالأدَبِ، وأُمُورِ الكتابةِ، والخَطِّ.

ثُمَّ جاء الطَّاعُونُ، وأُصيبَ به أبُوهُ، وعددُ كبيرٌ مِنَ العُلَماء الَّذين كان يأخذُ عنهم، وقد هاجر مَنْ بَقِيَ منهم حيًا إلى المَغْرِبِ الأقْصى، ونتيجةً لهذا الوَضْعِ ترك ابْنُ خَلْدُونَ العِلْمَ، واتَّجه للسِّياسة.

حياتُهُ العامَّةُ:

تولَّى كتابةَ السِّرِّ والنَّظَرَ في المظالم عنْدَ أمير تُونسَ، ثُمَّ دخل غَرْنَاطَةَ في أوائل ربيع الأوَّل سَنَةَ ٧٦٤هـ، وتَلَقَّاه سُلْطانُها ابْنُ الأحمر عنْد قدومه، ونظمه في أهْلِ مَجْلسه، وكان رسولَهُ إلى عظيم الفرنج بإشْبِيلِيَّةَ، فقام بالأمر الَّذي نُدبَ إليه، ثُمَّ توجَّه في سنة ٧٦٦هـ إلى بجَايةَ[1]، ففوَّض إليه صاحبُها تدبيرَ مملكته مُدَّةً، ثُمَّ استأذن في الحجِّ، فأذن له، فقَدمَ الدِّيارَ المصْرِيَّةَ في ذي القعْدَة سنة ٧٨٤هـ، فحجَّ ثُمَّ عاد إلى مصر، فتلقَّاه أهلُها وأكرموه، وأكثروا منْ مُلازمته والتَّودُّد إليه، وتصدَّر للإقراء في الجامع الأزْهَر مُدَّةً، ثُمَّ قرَّره الظاهرُ برقوقٌ في قضاء المالكيَّة بالدِّيار المصرية في جُمَادى الآخرة سنة ٧٨٦هـ، حتَّى مات قاضيًا فَجْأةً في يَوْم الأربعاء لأرْبَع بَقِية منْ رَمَضَانَ سنة ٨٠٨، ودُفنَ بمقابر الصُّوفيَّة خارجَ باب النصر، ولَهُ من العُمُرِ ستٌّ وسَبْعُون سنةً وخمسةٌ وعشْرُونَ يومًا.

ثَنَاءُ العُلَماءِ عليه:

قال البشبيشيُّ -رحمه الله-: «كان فصيحًا مفوَّهًا، جميل الصُّورة حَسَنَ العِشْرة إذا كان معزولاً، فأمَّا إذا ولِيَ فلا يُعاشَرُ، بَلْ يَنْبغي ألاَّ يُرَى»[2].

---

(١) بجاية -بالكسر-: من بلاد الجزائر.

(٢) لَعَلَّ خَلْدُون يَرَى هذا الرَّأيَ لِمَنْ تولَّى شيئًا مِنْ أُمُورِ النَّاسِ، وهذا هُوَ الألْيَقُ بهذا المقامِ؛ لأنَّ =

وقال ابنُ الخطيبِ: «رجلٌ فاضلٌ، جمُّ الفضائلِ، رفيعُ القَدْرِ، أصيلُ المحتَدِ[1]، وقورُ المجلسِ، عالي الهمَّةِ، قويُّ الجأشِ، مُتقدِّمٌ في فُنُونٍ عَقْليَّةٍ ونَقْليَّةٍ، مُتعدِّدُ المزايا، شديدُ البَحْثِ، كثيرُ الحفْظِ، صحيحُ التَّصَوُّرِ، بارعُ الخطِّ، حَسَنُ المُعاشرةِ، مفخرةٌ مِنْ مفاخرِ العَرَبِ».

وقال عنه -الإمام المَقْريزيُّ- رحمه الله-: «لقد كان ابْنُ خَلْدُونَ هذا منْ عجائبِ الزَّمانِ، ولَه منَ النَّظْمِ والنَّثْرِ ما يُزْرِي بعُقُودِ الجُمَانِ[2]، مَعَ الهمَّةِ العَلِيَّةِ، والتَّبَحُّرِ في العلومِ الفَعْليَّةِ والنَّقْليَّةِ».

وقال عنه الشَّوكانيُّ -رحمه الله-: «صنَّف تاريخًا كبيرًا في سَبْعِ مُجلَّداتٍ ضَخْمةٍ، أبان فيها عَنْ فصاحةٍ وبَراعةٍ، كان لا يتزيَّا بزي القُضَاةِ، بل مستمر على عريِّ بلادِهِ، وله نَظْمٌ حَسَنٌ، فمنه:

أَسْرَفْنَ في هَجْري وفي تَعْذيبي	وأَطَلْنَ مَوْقفَ عَبرتي ونَحيبي
وأبَيْنَ يَوْمَ الْبَيْنِ وَقْفَةَ ساعةٍ	لِوَدَاعِ مَشْغُوفِ الفُؤَادِ كَئِيبِ»[3]

= النَّاسَ -وخاصَّةً- السُّفهاءَ- إذا وجدوا منْ وليِّهِمُ الحَزْمَ والهَيْبَةَ، ضَعُفَتْ شوكَتُهُمْ، وقَصرتْ بهم همَمُهُم عمَّا يأتون منَ المآثم، وحُسْنُ المعاشرة يَنْبَغي إظهارُها لأهل الكَرَم والمُروءة والقداد بعيدًا عَنْ أعيُنِ السُّفهاء؛ «أجرأُ الناسِ على الأسَدِ أكثرُهُمْ لَهُ رُؤيَةً».

(١) المَحْتِد -بزنَةَ- المَجْلس-: الأصل.

(٢) الجُمَان -بزنة الغُرَاب-: اللُّؤْلُؤ.

(٣) لقد أورد الإمامُ المَقْريزيُّ طائفةً حسنةً منْ شعْره؛ يَرَى القارئ عذوبةَ ألفاظ مع موسيقي حزينة في كثير منها، ولعلَّ ذلك بسبب مَوت جميع أفراد أُسْرَته في حادث غَرَق السَّفينة الَّتي كانتْ تُقلُّهُمْ منْ تُونسَ إلى الإسكندَرية، وقد غَرقَ معهم جميعُ ماله وكُتُبه، وكانوا في طريقهمْ للالتحاق به!

وترجم له ابنُ عمارٍ أحدُ مَنْ أخذَ عنْهُ، فقال: «الأستاذُ المُتَوَّهُ بلسانِه، سيفُ المحاضرة، كان يسلُكُ في إقرائِه للأصول مَسْلَكَ الأقدمين».

وقال: (وله من المؤلَّفات - غيرَ الإنشاءات النَّثْرِيَّةِ والشِّعْرِيَّة. التي هي كالسِّحْرِ - التَّاريخُ العَظيمُ المُترجَمُ بالعِبَرِ في تاريخِ المُلُوكِ والأُمَمِ والبَرْبَرِ، حَوَتْ مُقَدِّمَتُهُ جميعَ العلوم).

❁❁❁



فَنُّ التَّاريخ

فَنُّ التَّاريخ فَنٌّ عَزيزُ المَذْهَب، جَمُّ الفَوائد، شَريفُ الغاية؛ إذْ هُوَ يوقفُنا[1] على أحوال الماضيةَ منَ الأُمَمِ في أخْلاقهِمْ، والأنبياء في سِيرَهِم، والملوك في دُوَلهِمْ وسياسَتِهِمْ؛ حَتَّى تَتِمَّ فائدةَ الإقتداء في ذلك لِمَنْ يَرُومُهُ أحوالِ الدِّين والدُّنيا». (٢١)

مَنْشأُ الغَلَطِ في كتابةِ التَّاريخ

الأخبارُ إذا اعتُمِدَ فيها على مُجَرَّدِ النَّقْلِ، ولم تُحكمْ أُصُول العادة، وقواعدُ السياسة وطبيعة العُمْران والأحوال في الاجتماع الإنسانيِّ، ولا قيست الغائبُ منها بالشَّاهد، والحاضرُ بالذاهب- فربَّما لم يُؤْمَنْ فيها منَ العُثُورِ، ومَزَلَّةِ القَدَمِ، والحَيْد عَنْ جادَّةِ الصِّدْق». (٢١)

سَبَبُ نَكْبِ البَرامكة

«إنَّما كان سَبَبُ نَكْبِ البَرامكة ما كان من استبدادهم على الدَّوْلَة، واحتَجافهِمْ[2] أموالَ الجِبَاية، حتَّى كان الرَّشيدُ يَطْلُبُ اليَسيرَ منَ المَالَ فلا يَصلُ إليه، فغلبوه على أمْره، وشاركوه في سُلْطانه، ولم يكن له معهم تصرُّفٌ في أُمُور مُلْكه، فعظُمَتْ آثارُهُمْ، وبَعُدَ صِيتُهُمْ، وعَمَّرا. مراتبَ الدَّولة وخُطَطَها[3] بالرؤَساء من وُلْدهِمْ وصنائعهِمْ، واحتازوها عَنْ سِوَاهُمْ: منْ وزارة، وكتَابة، وحجَابة، وسَيْفٍ، وقَلَمٍ». (٢٧)

---

(١) يوقفنا: يُطْلعُنا.

(٢) احتجف الشَّيْءَ: استخلصه وحازه، والأَصَحُّ: احتجانهم، واحتجن الشَّيْءَ أيْ: جَذَبَهُ.

(٣) خُططها أي: أمورها، جَمْعُ خُطَّةٍ -بالضَّمِّ-.

أسبابُ قيامِ الدَّوْلَةِ وسقُوطِها

الدَّوْلَةُ والسُّلْطانُ سُوقٌ للعالَم، تُجلَبُ إليه بضائعُ العُلوم والصَّنائع، وتُلْتَمَسُ فيه ضَوَالُّ الحكَم، وتُحَدى إليه ركائبُ الرِّوايات والأخبار، وما نفق فيها نفَقَ عنْ الكافَّة، فإن تنَزَّهَت الدَّوْلَةُ عَن التَّعسُّف والمَيْلِ والأفَن[١] والسَّفْسَفَة، وسَلكَت النَّهْجَ الأمَم[٢]، ولَم تَجُرْ[٣] عَنْ قَصْدِ السَّبيلِ -نَفَقَ في سوقها الإبريزُ الخالصُ واللُّجَيْنُ[٤] المُصَفَّى؛ وإن ذهبت مع الأغراض والحقود، وماجتْ بسماسرة العرب البغي والباطل، نفق البهرجُ والزائفُ، والناقد البصيرُ قسطاسُ نظره وميزانُ بحثه ومُلْتمسَه» (٣٤)

أسبابُ تبدُّلِ الأحوالِ والعوائد

السببُ الشائعُ في تبدلِ الأحوال، أنَّ عوائدَ كُلِ جيلٍ تابعةٌ لعوائد سلطانه، كما يُقالُ في الامثال الحكميَّة: «الناسُ على دينِ المَلِك».

وأهلُ المَلْك والسُلطان إذا استولوا على الدولة والأمر فلابُدَّ من أن يفزَعوا[٥] إلى عوائد من قبلَهمُ ويأخذ الكَثير منها ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك فيقع في عوائد الدولة بعضُ المخالفة لعوائد الجيلِ الأول، إذا جاءت دولةٌ أخْرى من بعدهم ومُزِجت من عوائدهم وعوائدها خالفت -أيضًا- بعضَ الشيء، وكانت للأولى أشَدَّ مخالفةً، ثم لا يزالُ التدريجُ في المخالفة حتى ينتهيَ إلى المباينة بالجملة» (٤٠).

أسبابُ قبولِ الكذبِ وفقه

لما كان الكذبُ متطرقًا للخبرِ بطبيعته وله أسبابٌ تقتضيه، فمنها التشيعاتُ للآراء

---

(١) الأفَن: -بالتَّحريك- ضعف الرَّأيِ.

(٢) الأمَم: -بفتحتين-: الوسَط.

(٣) لم تجر: لم تعمل.

(٤) اللجين: الفضة.

(٥) فزع بمعنى لجأ.

والمذاهب؛ فإن النفسَ إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطتْه حقّه من التمحيص والنظر حتى تتبيّن صدقَه من كذبه؛ وإذا خامرها تشيُّعٌ لرأي أو نحلة قبلَتْ ما يُوافقُها من الأخبار لأول وهْلَة، وكان ذلك الميل والتشيُّعُ غطاءً على عين بصيرتها عن الانتقاء والتمحيص فيقعُ في قبول الكذب ونقله». (٤٦).

أثرُ الترفِ في القساوةِ والغفلَة

اعلم أنَّ أثرَ هذا الخصْب في البدن وأحواله يظهرُ حتى في حال الدين والعبادة فنجدُ المتقشِّفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذُ نفسَهُ بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسنَ دينًا وإقبالاً على العبادة من أهل الترف والخصب بل نَجدُ أهلَ الدين قليلين في المُدُن والأمصار لما يَعْمُّها من القَسَاوَة والغفلة المتصلة بالإكثار من اللُحمان والأُدُم ولُباب البُرِّ، ويختصُّ وجودُ العُبَّاد والزُّهاد لذلك بالمتقشِّفين في غذائهم من أهل البداوي. (٩٧).

أهلُ البدوِ أقربُ إلى الخيرِ من أهلِ الحضَر

«وسببُه أن النفسَ إذا كانت على الفطرة الأولى كانت مُتَهَيِّئةً لقبول ما يردُ عليها وينْطَبعُ فيها من خير أو شرٍّ؛ قال رسولُ الله -ﷺ- «**كلُّ مولود يولدُ على الفطرة؛ فأبواهُ يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه**»[1] وبقدر ما سبق إليها من أحد الخلقين تَبْعُدُ عن الآخر ويَصْعُبُ عليها اكتسابُهُ فصاحبُ الخَيْر إذا سبقتْ إلى نفسه عوائدُ الخير وحصلتْ لها ملكتُهُ بَعُدَ عنه الشرُّ وصعبَ عليه طريقُهُ؛ وكذا صاحبُ الشرِّ إذا سبقتَ إليه -أيضًا- عوائدُهُ، وأهلُ الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذُ، وعوائد الترف، والإقبال على الدنيا، العكوف على شهواتهم منها، قد تلوَّثَ أنفُسُهُمْ بكثير من مذمومات الخُلُق والشرِّ وبعُدتْ عليهم طرقُ الخيرِ ومسالكُهُ بقدرِ ما حصلَ لهم من ذلك. (١٢٧-١٢٨).

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٤١)، ومسلم (٨/ ٥٣).

أهل الحضر أقل شجاعة من البدو

والسَّبَبُ في ذلك: أنَّ أهل الحَضر ألقوا جُنوبَهُمْ على مهاد الراحَة والدَّعَة، وأنغمسوا في النعيمِ والتَرفِ ووكَلُوا أمْرَهُمْ في المُدافَعَة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكمِ الذى يسد سُهم والحامية التي نزلَتْ حراسَتَهُمْ، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطُهُم والحرزِ الذي يحولَ دونَهم، فلا تهيجُهَم هيعةٌ(١) ولا ينفرُ لهم صيدٌ فهم غارُّون(٢) آمنون قد ألقوا السلاحَ، وتوالتْ على ذلك منهم الأجيال، وتنزَّلوا مُنْزلَةَ النساء والولدان الذين هم عِيالٌ على أبي مَثْواهُمْ؛ حتَى صار ذلك خُلُقًا يتنزَّلُ مَنزلَةُ الطبيعة. (١٢٩)

أهلُ البدوِ أقربُ إلى الشجاعةِ من أهلِ الحضر

أهل البـدو لتفـرُّدهم عن المجـتمعِ، وتوحُـشـهمْ في الضـواحي، وبُعْـدهم عن الحاميَةِ، وانتباذهم عن الأسوارِ والأبواب، قائمون بالمدافعة عن أنْفُسهم لا يكلونها إلى سِواهُم، ولا يثقون فيها بغيرِهم. فهم دائمًا يحملون السلاحَ ويتلفَتونَ عن كلِّ جانب في الطُرُق، ويتجافَون عن الهُجوع إلا غراراً في المجالسِ وعلى الرحالِ وفوقَ الأقْتاب، ويتوجَّسون(٣) للنبآت(٤) والهيعات، ويتفرَّؤونَ في القفرِ والبيداء، مُدلينَ ببأسِهْم، واثقين بأنْفُسهم؛ قد صار البأسُ خُلُقًا، والشجاعةُ سَجيةً يرجعون إليها حتى دعاهُم داعٍ أو استنفرهم صارخٌ». (١٢٩).

الإنسانُ ابنُ عوائده

الإنسانُ ابن عوائده ومألوفه لا ابنُ طبيعته ومَزاجه. فالذي ألفَهُ في الأحوال حتَى صار خُلُقًا وملكةً وعادةً تتنزَّل منزلةَ الطبيعة والجبلَّة. (١٣٠).

(١) هيعةُ: الصوتُ المرعبُ والمخيفُ.
(٢) غارُّون: مطمئنون.
(٣) يتوجسون: يستمعون.
(٤) النبآت: الأصوات الخفية.

كيف ندعو الناسَ

لا تستنكرْ . . . بما وقعَ في الصحابةِ من أخذهم بأحكامِ الدينِ والشريعةِ ولم ينقصْ ذلك من بأسِهم، بل كانوا أشدَّ الناسِ بأسًا، لأنَّ الشارعَ -صلواتُ الله عليه- لَمَّا أخذ المسلمون عنهُ دينَهم كان وازعُهم من أنفسِهم، لما تلا عليهم من الترغيبِ والترهيب، ولم يكن بمتعلمٍ صناعي، ولا تأديب تعليميٍّ، إنما هي أحكامُ الدينِ وآدابُهُ المتلقَّاةُ نقلاً يأخذون أنفسَهم بما رسخَ فيهم من عقائد الإيمان والتصديق» فلم تزلْ سَورةُ بأسِهم مستحكمةً، كما كانت لم تَخْدِشْها أظفارُ التأديبِ والحُكم» (١٣١)

الأصلُ في الإنسانِ الظلمُ

اعلمْ أنَّ الله- سبحانَهُ- ركَّبَ في طبائعِ البشرِ الخيرَ والشَّرَّ كما قالَ تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ٩].

وقال: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٨].

والشرُّ أقربُ الخلالِ إليه إذا أُهْمِلَ في مَرْعى عوائده ولم يُهَذِّبْهُ الإقتداءُ بالدِّين. وعلى ذلك الجَمُّ الغَفيرُ، إلا مَنْ وَفَّقَهُ الله، ومن أخلاقِ البشرِ الظلمُ والعدوانَ بعضُهم على بعض. فمن امتدَّت عَيْنُهَ إلى متاعِ أخيه امتدَّت يدَهُ إلى أخذه إلا أن يَصُدَّهُ وازعٌ كما قيل:

والظُّلْمُ من شِيَمِ النُّفوسِ فإن تَجِدْ ذا عِفَّةٍ فلعلَّهُ لا يظْلِمُ (١٣١)

أهميةُ العصبيةِ لأهلِ البدوِ

لا يصْدُقُ دفاعُهم وذِيادُهم إلا إذا كانوا عصبيةً وأهلَ نسبٍ واحد؛ لأنهم بذلك تشتدُّ شركتُهم ويُخشى جانِبُهم؛ إذْ نُعرَةُ كل أحدٍ على نسبه وعصبيَّته أهمُّ؛ وما جعلَ

اللهُ في قلوبِ عبادِه من الشفقةِ والنعرةِ[1] على ذوي أرحامهم وقربائهم موجودةٌ في الطبائعِ البشرية، وبها يكون التعاضدُ والتناصرُ، وتعظُمُ رهبةُ العدوِّ لهم، واعتبر ذلك فيما حكاه القرآنُ عن إخوة يوسُفَ -عليه السلام- حين قالوا لأبيه: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤]؛ والمعنى: أنه «لا يتوهَّمُ العدوانُ على أحدٍ مع وجودِ العصبةِ له» . (١٣٢).

هلاكُ من لا عُصبةَ لهُ

أمَّا المُتَفَرِّدون في أنسابهم فقلَّ أن تُصيبَ أحدًا منهم نعرةٌ على صاحبه، فإذا أظلم الجوُّ بالشرِّ يوم الحربِ تسلَّلَ كلُّ واحدٍ منهم يبغي النجاةَ لنفسه خيفةً واستيحاشًا من التخاذُل، فلا يقدرون من أجلِ ذلك على سُكنِ القفرِ كما أنهم حينئذ طُعْمَةٌ لمن يلتهمُهُمْ من الأممِ سواهُم. (١٣٢).

أهميةُ العصبيةِ في إرساءِ دعائمِ الدولةِ

وإذا تبيَّنَ ذلك في السَّكن التي تحتاجُ للمُدافعة والحماية فبمثله يتبيَّنُ لك في كلِّ أمرٍ يُحْمَلُ الناسُ عليه من نُبُوَّةٍ أو إقامة مُلْكٍ أو دعوةٍ؛ إذ بُلوغُ الغرضِ من ذلك كلِّه إنما يتمُّ بالقتال عليه؛ لما في طبائعِ البشرِ من الاستعصاء، ولابُدَّ في القتال من العصبيةِ كما ذكرناه آنفًا؛ فاتخذهُ إمامًا تقتدي به فيما نوردُهُ عليك بَعْدُ» (١٣٢).

مما تكونُ العصبيَّةُ

العصبيةُ إنما تكونُ من الالتحام بالنسب أو ما في معناه وذلك أنَّ صلةَ الرحم طبيعيٌّ في البشرِ إلا في الأقلّ. ومن صلتها النَّعْرَةُ على ذوي القربى وأهلِ الأرحامِ أن ينالَهم ضيمٌ أو تصيبَهم هلكةٌ. فإن القريبَ يجدُ في نفسه غضاضةً من ظلمِ قريبِه

(١) النعرة: الصراخُ والصياحُ في حربٍ أو شرٍ.

أو العداء عليه، ويودُّ له يحولُ بينَهُ وبينَ ما يصلُهُ من المعاطبِ والمهالك، نَزْعَةٌ طبيعيَّةٌ في البَشَرِ من كانوا (١٣٢).

العصبيَّةُ حاصلةٌ بَعُدَتْ النسبُ أو قَرُبَتْ

إذا كان النسبُ المتواصلُ بين المتناصرين قريبًا جدًا بحيثُ حَصَلَ به الاتحادُ والالتحامُ كانت الوصلةُ ظاهرةً فاستدعت ذلك بمجرَّدها ووضوحها، وإذ بعد النَسَبُ بعضَ الشَّيْء فربَّما تُنوسيَ بعضَها ويَبقى منها شُهرةٌ فتحَملُ على النُّعْرَةَ لذوي نسبه بالأمرِ المشهورِ منه، فراراً من الفضاضَيَة التي يتوهَمُها في نفسهِ من ظلمٍ من هو منسوبٌ إليه بوجه» (١٣٣).

العصبيةُ تحصلُ بالولاءِ والحلفِ

ومن هذا البابِ الولاءُ والحلفُ إذْ نُعرةُ كلِّ أحد على أهلِ وَلائه وحلفه للألفَةَ الَّتي تلحقُ النَفسَ من اهتضامِ جارهَا أو قريبها أو نسيبها بوَجْه من وجوه النسبِ، وذلك من أجلِ اللُّحمة الحاصلةِ من الولاءِ مثلَ لُحمَة النسبِ أو قريبًا منها» (١٣٣).

أين يوجدُ النسبُ الصريحَ؟

الصريحُ من النسبِ إنما يوجدُ للمتوحِّشين في القَفْرِ من العرب ومَنْ في معناهم، وذلك لما اختُصُّوا به من نَكَدِ العيشِ وشَظَفِ الأحوالِ وسُوءِ المواطنِ، حملتْهُمُ الضرورَةَ التي عيَّنَتْ لهم تلك القسمةَ؛ وهي لما كان معاشُهم من القيامِ على الإبلِ ونتاجها ورعايتها، والإبلُ تدعوهم إلى التوحُّشِ في القفرِ لرعيتها، من شجر ونتاجها في رسالة كما تقوم، والقفرُ مكانُ الشَّظَفِ والسَّغَبِ[1] فصار لهم إلفًا

(١) السغب: الجوع مع التعب.

وعادة وربيّت فيه أجيالهم حتى تمكّنت خلقًا وجلبّة؛ فلا ينزعُ إليهم أحدٌ من الأمم أن يساهمَهُم فى حالهم، ولا يأنسُ بهم أحدٌ من الأجيالين (١٣٣).

كيف يقعُ اختلاطُ الأنساب

اعلم أنّه من البيِّن أنَّ بعْضًا منْ أهْل الأنساب يَسْقُطُ إلى أهْل نَسَب آخرَ بقرابة إليهم أو حلْف أو ولاء أو لفرار من قوْمه بجنَاية أصَابَها، فَيُدعى بنَسب هؤلاء ويُعدّ منهم في ثَمَراته من النُّعْرَة والتَوَد(١) وحَمْل الديات وسائر الأحْوال. وإذا وُجدَتْ ثمرات النَسَب فكأنّهُ وُجدَ؛ لأنّهُ لا معنى لكونه من هؤلاء وهؤلاء إلاّ جريَانُ أحْكَامهمْ وأحْوَالهم عليه، وكأنّه الْتَحَمَ بهم. (١٣٤).

كيف يتناسى الناسُ النَّسَبَ

قد يتناس النسَبَ الأوّلَ بطول الزمان ويذهَبُ أهْلُ العلم به فَيَخْفى على الأكْثر. وما زالت الأنسابُ تسقطُ من شَعْب إلى شَعْب ويَلْتَحمْ قَوْمٌ بآخرينَ في الجاهليّة والإسْلام وَالْعَرب والْعَجَم. وانظر خلاف الناس في نَسَب آل الْمُنْذر وغيرهم يَتَبَيَّنْ لك شَيْءٌ من ذلك. ومن شَأنُ بجيلَةَ في عَرْفَجَةَ بن هَرْثَمَةَ لَمَّا وَلاّهُ عُمَرُ عليهم فسألوه الإعْفاءَ منْهُ، وقالوا: هو فينا كزيق، أي دخيلٌ ولَصيقٌ، وطلبوا أن يُوَلّى عليهم جريرًا فسأله عُمَرُ عن ذلك فقال عَرْفَجَةُ: «صدقوا يا أمير المؤمنين، أنا رَجُلٌ من الازْد أصبتُ دَمًا في قومي وَلحَقْتُ بهم».

وانْظُر منه كيف اختلط عَرْفَجَةُ ببَجيلةَ ولَبسَ جلْدَتَهمْ وَدُعيَ بنَسَبهمْ حتَّى تَرَشَّحَ للرْئاسَة عَلَيْهمْ، لولا علم بَعْضهمْ بوَشائجه؛ ولو غَفَلوا عن ذلك وامْتَدَّ الزَمَنُ لَتُنوسيَ بالجُمْلَة، وعُدَّ منهم بكل وجه ومذهب. (١٣٤-١٣٥).

(١) التود: القصاص في القتل.

الرئاسة إنما تكون في النسب الخاص

اعلم أنَّ كلُّ حيٍّ أو بَطن من القَبائلِ وإن كانوا عصَابَةً واحدة لنَسَبهمْ العامِّ ففيهم -أيضًا- عصبياتٌ أخرى لأنساب خاصة هي أشَدُّ التحامًا من النسب العامِّ لهم، مثلَ عشيرٍ واحد أو أهْلِ بَيْت واحد أو أخوَة، بني أب واحد لا مثل بني العَمِّ الأقْرَبينَ أو الأبعدين، فهؤلاء أقْعَدُ بنَسَبهمْ المخصوص ويُشاركونَ مَن سواهُمْ من العصائب في النسب العام، والنُوَّةُ تَقَعُ من أهل نَسَبهمْ المخصوصِ ومن أهْلِ النسب العام؛ إلاَّ أنها في النسبِ الخاصِّ أشَدُّ لقرب اللُّحمَة. والرئاسة إنما تكونُ في نصابٍ واحد منهم ولا تكون في الكلِّ» (١٣٥).

الرياسة إنما تكون في النصاب المخصوص بأهل الغلب

ولما كانت الرِئاسَةُ إنَّما تكونُ بالغلب وجَبَ أن تكون عصبيَّةُ ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقَعَ الغلبُ بها وتتمَّ الرئاسة لأهْلها. فإذا وجَبَ ذلك تَعَيَّنَ أن الرِّئاسَةَ عليهم لا تزالُ في ذلك النِّصابِ المخصوصِ بأهل الغلب عليهم؛ إذْ لو خرجت عنهم وصارت في العصائبِ الأُخرى النازلَةِ عن عصاتهم في الغلبِ لما تَمَّت لهم الرِئاسَةُ. (١٣٥).

الرئاسةُ لا تنتقلُ إلا إلى الأقوى

لا تزالُ (الرئاسةُ) في ذلك النصابِ متنقالة من فرعٍ إلى فَرعٍ، ولا تَنْتقلُ إلاَّ إلى الأقوى من فُروعه لما قلناهُ من سرِّ الغلب؛ لأن الاجْتمَاعَ والعصبيات بمثابة المزاج في المتكوِّن، والمزاجُ في المتكوِّن لا يَصلُحَ إذا تكافَأت العناصرُ فلابُدَّ من غلبةِ أحدهما وإلاَّ لم يتمَّ التكوينُ، فهذا هو سرِّ اشتراطِ الغلبِ في العصبيَّة» (١٣٥).

الرئاسةُ على أهلِ العصبيَّةِ لا تكونُ في غيرِ نسبِهم

لابُدَّ في الرئاسةِ على القدمِ أن تكونَ من عصبيةٍ غاليةٍ لعصبياتِهمْ واحدةً واحدةً؛ لأن كلَّ عصبيةٍ منهم إذا أحسَّتْ بغلبِ عصبيةِ الرئيسِ لهم أقرُّوا بالإذعانِ والأتباعِ. (١٣٦).

فائدةُ النَّسَبِ

الشرفُ والنسبُ إنما هو بالخلال، ومعنى البيت أن يَعُدَّ الرجُلُ في آبائه أشرافًا مذكورين، تكونُ له بولادتهم إياهُ والانتساب إليهم تَجلَّةً في أهل جلدَته، لمَا وَقَرَ في نفوسهم من تَجلّة سَلَفه وشرفهم بخلالهمْ. والنَاسُ في نشأتهم وتناسُلهم معادنُ؛ قال -ﷺ- : «والناسُ معادنُ: خيارُهُمْ في الجَاهليةِ خيارُهم في الإسلام إذا فقِهُوا»(١).

فمعنى الحسب راجعٌ إلى الأنساب، وقد بيَّنَّا أنَّ ثمرةَ الأنساب وفائدتَها إنما هي العصبيّةُ للنعرَة والتناصرُ؛ بحيثُ تكونُ العصبيَّةُ مرهوبةَ ومخشيَّةً، والمنبتُ فيها زكيًا ومحميًا تكونُ فائدة النسب أوضحَ وثمرتها أقوى» (١٣٧).

العصبيَّةُ ثمرةُ النَّسَبِ

قد يكونُ للبيت شرفٌ أوَّلٌ بالعصبيَّة والخلال ثم يَنْسلخونَ منْهُ لذهابها الحضارة، كما تقدَّمَ، ويختلطون بالغمار ويبقى في نفوسهمْ وَسْوَاسُ ذلك الحَسَب يعُدُّون به أنْفُسَهُم من أشرافِ البيوتات أهْلِ العصائب وليسوا منها في شَيْءٍ، لذَهابِ العَصَبيَّة جُمْلَةً» (١٣٨).

نسبٌ بلا عصبيةٍ وسواسٌ وهَذَيانٌ

كثيرٌ من أهلِ الأمصارِ الناشئينَ في بيوت العَرَب أو العَجَم لأوّل عَهْدهم موسوسون بذلك. وأكثر ما ترسخَ الوَسْواسُ في ذلك لبَنيَ إسْرائيلَ. فإنَّه كان لهم

(١) رواه البخاري (٤٣٩٣)، ومسلم (٦٥١٢).

بَيْتُ من أعْظَم بيُوتِ العالم بالمَنْبت : أولاً : لما تَعَدَّوَ في سَلَفِهِمْ من الأنبياء والرُّسُل من لدُنْ إبراهيمَ -عليه السلام-، إلى موسى صاحب مِلَّتِهِمْ وشريعَتِهِمْ؛ ثُمَّ بالعَصَبَيَّة ثانيًا : وما آتاهم اللهُ بها منَ المُلك الذي وَعَدَهُم به. ثمَّ انسلخوا من ذلك أجْمَعَ، وضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والمَسْكَنَةُ، وكُتِبَ عليهم الجلاءُ في الأرض، وانفردوا بالاسْتِعْبَاد لِلْكُفْرِ آلافًا من السنين، وما زال هذا الوَسْواسُ مصاحبْ لهم فتجدهُمَ يقولون : هذا هارونيٌّ؛ هذا من نسل يوشَعَ؛ هذا من عَقب كالبَ، هذا من سِبْطِ يهوذا؛ مع ذهاب العصَبِيَّةِ ورُسو في الذُلِّ فيهم منذ أحقاب مُتَطَاوِلَة.

وكثير من أهل الأمْصارِ وغَيْرِهِم المُنْقَطِعينَ في أنسابِهْم عن العصبيَّة يَذْهَبُ إلى هذا الهذيان». (١٣٨).

الشرف للموالي وأهل الاصطناع بمواليهم لا بأنسابهم

إذا اصْطَنَعَ أهْلُ العصبيَّة قومًا من غير نَسبِهِمْ أو استرقوا العبْدانَ والموالي، والتَحَموا بهم كما قلناه، ضَرَبَ معهم أولئك الموالي والمصطَنَعُون بنسبِهِمْ في تلك العَصَبيْة ولبسوا جِلْدَتَها كأنَّها عُصْبَتُهمُمْ، وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهَمَةٌ في نَسبِها؛ كما قال ﷺ : «مولى القوم منهم»[١] وسواءٌ كان مَوْلى يرقٍ[٢] أومَوْلى اصطناع وحِلْف[٣] وليست نَسَبُ ولادَته بنافع له في تلك العَصَبِيَّة، إذ هي مُبَاينَةٌ لذلك النسب، وعصبيَّتُ ذلك النسب مَفْقُودَةٌ لِذَهاب سرِّها عند التحامه بهذا النسب الآخر، وَفقْدانُه أهْلُ عصبيَّتها، فيصرُ من هَؤلاء ويندرج فيهم. فإذا تعددت

(١) أخرجه البخاريٌّ بلفظ من «أنفسهم انظر «جامع الأصول (٢/ ٥٨٦)، المصنف (١٢/ ٥٠٥)، المسند (٥/ ٢٩٥)، وصححه الألباني في «المشكاة» (١٨٢٩).

(٢) مولى الرق : هو العبد يعتقه سيده فيصبح ولاؤه له، ثم يرثه إذا مات ولم يترك عَقَبة.

(٣) مولى الحلف الرجل الحر الأصل يتخذ له مولى بعقد صريح، فيصبح عضو في أسرة مولاه.

له الآباءُ في هذه العَصَبيـة كـان له بيـهم شـرَفٌ وبيتٌ على نسبتـه في ولائهم واصطناعهمْ لا يتجاوزُهُ إلى شرَفِهم، بل يكونُ أدْوَنَ منهم على كل حالٍ.

وهذا شأنُ الموالي في الدُّوَل والخَدمَة كلِّهم، فإنَّهمْ إنَّما يَشْرفُونَ بالرُّسوخ في ولاء الدَوْلَة وخدْمَتها، وتَعَدُّو الآباء في ولايَتها، ألا ترى إلى موالي الأتراك في دولة بني العَبَّاس، وإلى بني بَرْمَكَ من قبلهم، وبنى نوبَختَ كيف أدركوا البيت والشَّرَفَ وبنوا المجدَ والأصالةَ بالرُّسوخِ في ولاءِ الدَوْلة» (١٣٨-١٣٩).

نهايةُ الحَسَبِ في العَقِبِ الواحِدِ أربعة آباء

اعتبرت الأربعةُ في نهاية الحسبِ في باب المدحِ والثَّناء قال -ﷺ-: «**إنَّما الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريم ابن الكريم يوسُفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ**»(١) إشارَةً إلى أنَّهُ بلغَ الغَايَةَ في المجدِ(٢). (١٤٠).

---

(١) (حسن) أخرجه «البخاريُّ» في «الأدب المفرو» (٦٠٥)، والترمذيُّ (٤/١٢٨)، والحاكمُ (٢/٣٤٦-٣٤٧)، وأحمد (٢/ ٣٣٢) من حديث أبي هُريرة -رضىَ اللهُ عنهُ-.

(٢) عزرَ ابنُ خلدون قولَه في الصفحة الآتية قولَهُ: ومن كتاب الأغاني في أخبارِ عزيف الفَداني أنَّ كسرى قال للنُعمان: هل في العرَب قبيلةٌ تَشرُفُ على قبيلَة. قال: نعم؛ قال: بأيِّ شيء؟ قال: مَنْ كان لهُ ثلاثةُ آباءٍ مُتَواليَة رؤساءُ، ثُم اتصلَ ذلك بكمال الرابع، فالبيت من قبيلَته؛ وطَلَبَ لك فَلَم يَجدْهُ إلاَّ في آلَ حُذَيْفَةَ بن بَدْرِ الغزاري، وهم بيتُ قَيْس، وآل ذي الحَدَّين بيتُ شَيْبانَ، وآل الأشعث بن قيس من كندَةَ، وآلُ حاجب بن زُرارَةَ، وآلُ قيس بن عاصم المنقريِّ من بني تَيميم مجمعَ هؤلاء الرهْطَ ومَن تَبَعَهُم من عشائرهم وأفقد لهم الحكامَ والعُدولَ، فقَام حذيفة بنُ بور، ثم الأشعْثُ بنُ قيس لقرابته من النُعمان، ثم بسطام بنُ قَيْس بن شَيْبانَ، ثُمَّ حاجبُ بنُ زُرارةَ، ثُمَّ قيسُ بنُ عاصمٍ، وخطبوا ونثروا. فقال كسرى كلهم سَيِّدٌ يصلُح لموضعه.

وكانت هذه البيوتاتُ هي المذكورةُ في العرب بعد بني هاشم. ومعهم بيتُ بني الذُّبْيان من بني الحارثِ بن كعبِ اليمنيِّ. هذا كلُّه يَدُلُّ على أنَّ الأرْبَعَةَ الآباءَ نهايةٌ في الحسبِ. (١٤١).

البدو أكثر شجاعة وأقدر على التغلب

اعلم أنَّه لما كانت البداوةُ سَبَبًا في الشَّجاعَة كما قلناه . . . لا جَرَمَ كان هذا الجيل الوَحْشِيُّ أشَدَّ شجاعَةً من الجيلِ الآخَر، فهم أَقْدَرُ على التغلُّب وانتزاعِ ما في أيدي سواهم من الأُمم؛ بل الجيلُ الواحدُ تختلف أحوالهُ في ذلك باختلاف الإعصار. فكلما نزلوا الأرياف وتَفَنَّقوا[1] النعيم وألفوا عوائد الخِصْبِ في المعاش والنعيمِ، نَقَصَ من شجاعَتِهِمْ بمقدار ما نقصَ من توحُّشِهِمْ وبداوتِهِمْ.

واعتبرْ ذلك في الحيوانات العُجمِ بدواجن الظباء والبَقَرِ الوحشيَّة والحُمُر إذ أزالَ تواحُّشُها بمخالطة الآدميِّين وأخصب عَيْشُها، كيف يَخْتَلفُ حالُها في الإنْتهاض[2] والشدَّة حتى في مشيتِها وحسنِ أويمِها؛ وكذلك الآدميُّ المُتَوَحِّشُ إذا أنس وأيفَ. (١٤١).

غايةُ العصبيَّةِ هي الملكُ

صاحبُ العصبيةِ إذا بلغ إلى رتبة طلبَ ما فوقَها، فإذا بلغَ رُتْبَةَ السؤْدُد والإتباع ووجَدَ السبيلَ إلى التغلُّب والقهر لا يتركُهُ؛ لأنه مطلوبٌ للنَّفْس. ولا يتمُّ اقتدارُها عليه إلا بالعصبيةِ الَّتي يكون بها متبوعًا، فالتَّغَلُّبُ الملكي غايةٌ للعصبيَّة كما رأيتَ.

ثم إن القبيلَ الواحدَ، وإن كانت فيه بيوتاتٌ متفرِّقةٌ وعَصَبيَّاتٌ متعدِّدَةٌ، فلابُدَّ من عصبيةٍ تكونُ أقوى من جميعها، تغلبُها وتستتبعُها، وتلتحمُ جميعُ العصبيَّات فيها، وتصيرُ كأنَّها عصبيةٌ واحدةٌ، كبرى، وإلا وقع الافتراقُ المُفضي إلى الاختلافِ والتنازعِ.

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

---

(١) تفنقوا: تنعموا.

(٢) الانتهاض: القيام بالأمر.

ثم إذا حصل التَغَلُّبُ بتلك العصبيَّةِ على قومِها طلبت بطَبعها التَغلُّبَ على أهل عصبيةٍ أُخرى بعيدة عنها.

فإن كافأتها أو مانعتها كانوا أقتالاً وأنظاراً، ولكل واحده منهما التغلُّبُ على حوزتها وقومها شأنَ القبائل والأُمَم المتفرقة في العالمِ. وإن غلبتْها واستتبَعَتْها الْتَحَمَتْ بها ـأيضًا-، وزادَتْها قُوَّةً في التغلب إلى قوتِّها، وطلبَتْ غايَةً من التغلُّبِ والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعدُ.

وهكذا -دائمًا- حتى تكافىءَ بقوتِّها قوَّةَ الدوْلة (فإن أدركت الدوْلة) في هرمِها ولم يكن لها ممانعٌ من أوْلياء الدولة أهلِ العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمرَ من يدها، وصار الملكُ أجمعَ لها، وإن انتهت إلى قوتِّها ولم يقارنْ ذلك حَرَمَ الدولة وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهارِ بأهلِ العصبيَّاتِ انتظمتها الدولةُ في أوليائها تستظهِره بها على ما يعِنُّ مقاصدها. (١٤٢-١٤٣).

من عوائقِ المُلك

حصولُ الترفِ وانغماسُ القبيلِ في النعيم

وسَبَبُ ذلك: أنَّ القبيلَ إذا غلبَتْ بعصبيَّتِها بعضَ الغلب استولتْ على النِّعَمة بمقدارِه وشاركت أهلَ النِّعَمِ والخَصب في نعمتِهم وخِصْبِهم، وضربْت معهم في ذلك بسهْمٍ وحصَّة بمقدارِ غَلَبها واستظهارِ الدولة بها. فإن كانت الدولةُ من القُوَّة بحيثُ لا يطمعُ أحدٌ في انتزاعِ أمرها ولا مشاركتِها فيه، أذعنَ ذلك القبيلُ لولايتها، والقنوعِ بما يسوِّغون من نعْمتِها ويَشْركون فيه من جبايتها؛ ولم تسمُ آمالُهُم إلى شيء من منازعِ الملك ولا أسبابه إنما هَمُّتهُم النعمُ والكسبُ وخصبُ العيشِ والسكونُ في ظلِّ الدولةِ إلى الدعَة والراحة والأخذِ بمذاهبِ الملكِ في المباني

والملابسِ، والاستكثار من ذلك والتأنُّق فيه بقدرِ ما حصلت من الرياسِ والتَّرَف وما يدعو إليه من توابعِ ذلك. فتذهبُ خشونَةُ البدَاوة وتضعُفُ العصبيَّةُ والبَسالَةُ، ويتنعَّمونَ فيما آتاهم اللهُ من البَسْطَةِ.

وتنشأ بَنوهم وأعقَابهُم في مثل ذلك من الترفُّعِ عن خدمة أنْفُسهم وولاية حاجاتهم، ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية حتى يصير ذلك خُلُقًا لهم وسجيَّةً فتنقصُ عصبيَّتُهُمْ وبسالتهُمْ في الأجيالِ بعدَهُم يتعاقبُها إلى أن تنقرضَ العصبيةُ، فيأذنون بالانقارضِ.

وعلى قدرِ ترفِهم ونعمتِهم يكونُ إشرافُهُم على الغناء فضلاً عن المُلك، فإنَّ عوارضَ التعرفِ والغرقِ في النعيم كاسره من سَورةِ العصبيةِ التي بها التغلُّبُ.

وإذا انقرضت العصبيةُ قصَّرَ القبيلُ عن المدافعةِ والحِمَايَةِ فضلاً عن المطالبة، والتَهَمَتْهُمُ الأُمَمُ سواهم.

وقد تبيَّنَ أن الترفَ من عوائقِ الملكِ ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٤٧] (١٤٣).

من عوائقِ المُلْكِ حصولُ المذلَّةِ للقبيلِ والانقيادُ إلى سواهم

وسببُ ذلك: أن المذلَّةَ والانقيادَ كاسران لسورة العصبيةِ وشدَّتها، فإن انقيادَهم ومذلَّتَهُمْ دليلُ على فقدانها؛ فمارئموا للمَذَلَّة حتى عجزُوا عن المدافعة (ومن عجزَ عن المدافعة) فأوْلى أن يكونَ عاجزاً عن المقاومةِ والمطالبة.

واعتبرْ ذلك في بني إسرائيلَ كما دعاهم موسى -عليه السلامُ- إلى مُلْك الشامِ؛ وأخْبَرَهُم بأن اللهَ قد كتبَ لهم مُلكها، كيف عجزوا عن ذلك وقالوا:

﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ [المائدة: ٢٢].

أي يُخْرِجَهُم اللهُ -تعالى- منها بِضَرْبٍ من قُدْرَتِه غيرَ عصبيَّتنا وتكونَ من معجزتِك يا موسى.

ولما عزمَ عليهم لجُّوا وارتكبوا العصيان وقالوا: ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا ﴾ [المائدة: ٢٤].

وما ذلك إلا لما آنسُوا من أنْفُسِهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الآيةُ وما يُؤْثَرُ في تفسيرها؛ وذلك بما حصلَ فيهم من خُلُقِ الانقياد وما رئموا من الذُلّ للقِبْطِ أحقابًا، حتى ذهبَت العصبيَّةُ منهم جُمْلَةً (١٤٣-١٤٤).

معنى علاماتِ الملكِ التَّنافسُ في مكارمِ الأخلاقِ

خلالُ الخير شاهدهٌ بوجود المُلْك لمن وُجِدَتْ له العصبيَّةُ. فإذا نَظَرْنا في أهل العصبيَّة ومن حصلَ لهم الغَلَبُ على كثيرٍ من النواحي والأُمَمِ، فوجدْناهم يتنافسُون في الخيرِ وخِلالِه من الكرمِ والعفو عن الزَّلات، والاحتمالِ من غيرِ القادر، والقِرى للضيوف وحمل الكلِّ وكسْبِ المُعدم، والصبرِ على المكارهِ والوفاء بالعَهْد، وبذلِ الأموالِ في صَوْنِ الأعراضِ وتعظيمِ الشريعَةِ وإجلالِ العلماء الحاملين لها...» (١٤٦).

سببُ زوالِ المُلْك

إذا تأذَّنَ اللهُ بانقراضِ المُلْك في أُمَّةٍ حملَهم على ارتكاب المذمومات، وانتحالِ الرذائلِ، وسُلوكِ طُرُقِها فتُفْقَدُ الفضائلُ السياسيَّةُ منهم جُملةً، ولا تزالُ في انتقاصٍ

يخرجُ الملكُ من أيديهم من الخير: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

واستقرىءْ ذلك وتتبَّعْهُ في الأُمَمِ السَّابقَة تَجدْ كثيراً ممَّا قلناهُ ورسمناهُ. (١٤٦).

ما يشهدُ لأهلِ القبائلِ بالمُلْك

أعلم أنْ من خلال الكمال الَّتي يتنافَسُ فيها القبائلُ أُولوا العصبيَّة. وتكونُ شاهدةً لهم بالمُلْك. إكرامَ العلماء والصالحين والأشراف وأهلِ الأحساب وأصْناف التجار والغُرَباء وإنزالَ الناسِ منازلَهم. وذلك أن القبائلَ وأهلَ العصبيات والعشائرَ لَمنْ يناهضُهُم في الشَّرف ويجاذبُهُمْ حَبْلَ العَشير والعصبيَّة، ويشاركُهم في اتساعِ الجاه أمرٌ طبيعيٌّ يحملُ عليه في الأكثرِ الرغبةُ في الجاه أو المَخافةُ من قدمِ المكرَّمِ أو التماسِ مثلها منه. (١٤٦-١٤٧).

كلَّما كانت الأمةُ وحشيَّةً كان ملكُها أوسَعَ

وذلك لأنَّهم أقدرُ على التغلُّب والاسْتبداد كما قُلْناه، واستعباد الطوائف، لقدرتهم على محاربةِ الأمَمِ سواهُم، ولأنَّهم يتنزَّلُون من الأهلين منزلةَ المُفترسِ من الحيواناتِ العُجمِ.

المُلك إذا ذهَبَ عن بعضٍ فلابُدَّ من عودته إلى آخَرَ من أهلِ العصبيَّات

إذا استولت على الأوَّلين الأيَامُ، وأبادَ غفراءَهم الهَرَمُ فطَبَختْهُمُ الدَّولةُ، وأكلَ الدَّهْرُ عليهم وشَرِبَ بما أرْهَفَ النعيمُ من حدِّهم واشْتَقَّتْ غريزةُ التَّرَف من مائهم، وبلغه أغايتهم من طبيعَة التَمدُّن الإنسانيِّ والتغلُّب السِّياسيِّ.

كـــدود القَـــزِّ ينسجُ ثم يفنى ... بمركـزِ نَسـجـهِ في الانعِكاسِ

كانت حينئذ عصبيةُ الآخرين موفورةً، وسَورةُ غَلَبهم من الكاسرِ محفوظةً وشارتُهم في الغَلَبِ معلومةً، فتَسْموا آمالُهُمْ إلَى المُلْك الذي كانوا ممنوعين منه بالقُوَّةِ الغالبةِ من جِنْسِ عصبيَّتهم، وترفعُ المنازعةُ لما عُرِفَ من غَلَبهم فيستولون على الأمرِ ويصيرُ إليهم. (١٤٨).

المغلوبُ مولَعٌ أبداً بالاقتداءِ بالغالبِ

والسببُ أنَّ النَفْسَ أبداً تعتقدُ الكمالَ فيمَنْ غَلَبَها وانقادَتْ إليه: إما لنظره بالكمال بما وَقَر عندها من تعظيمه؛ أو لما تُغالطُ به من أنهُ انقيادَها ليس لغَلَبٍ طبيعيٍّ إنما هو لكمالِ الغالبِ، فإذا غالطتْ بذلك واتَّصلَ لها حَصَلَ اعتقاداً فانتحلَتْ جميعَ مذاهبِ الغالبِ وتشبَّهتْ به، وذلك هو الإقتداءُ؛ أو لما تراهُ. والله أعلمُ من أن غَلَبَ الغالب لها ليس بعصبيَّة ولا قوَّة بأسٍ، وإنما هو بما انتحلَتْهُ من العوائد والمذاهب تغالطُ -أيضًا- عن الغَلَبِ وهذا راجعٌ للأوَّلِ، ولذلك ترى المغلوبَ يتشبَّهُ -أبداً- بالغالبِ في قلْبِه ومَركبِه، وسلاحِه، في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائرِ أحوالِه». (١٤٩).

الأمــةُ إذا غلبَتْ وصــارت في مُلْك غيرِها أسرعَ إليها الفَنَاءُ

الإنسانُ رئيسٌ بطبعه بمقتضَى الاستخلاف الذي خُلِقَ لَهُ؛ والرئيسُ إذا غُلِبَ على رئاستِه وكُبِحَ عن غايَة عِزِّه تكاسَلَ حتَّى عن شِبعِ بَطْنه ورَيِّ كبده، وهذا موجودٌ في أخلاق الأناسيِّ إذا كانت في مملكة الآدميِّين، فلا يزالُ هذا القبيلُ المملوكُ عليه أمرُهُ في تناقُصٍ واضمحلالٍ إلى أن يأخُذَهُمُ الغَنَاءُ». (١٥٠).

العربُ إذا تغلَّبُوا على الأقطارِ أسْرَعَ إليها الخرابُ

السببُ في ذلك: أنهم أمَّةٌ وحشيَّةٌ باستحكام عوائد التوحُش وأسبابه فيهم فصارَ لهم خُلُقًا وجبلَّةً، وكان عندهم معذوذًا لما فيه من الخروج على ربقَة الحكُم، وعدمِ الانقياد للسياسة، وهذه الطبيعةُ مُنافية للعُمْران ومناقضَةٌ له. فَغَايةُ الأحوال العاديَّةُ كُلَّها عندَهم الرِّحْلَةُ والتْغَلُّبُ وذلك مُناقضً للسكونَ الذي به العُمرانُ ونناف لَهُ. (١٥١)

العربُ لا يحصُلُ لهم المُلْكُ إلا بصِبْغَةٍ دينيَّةٍ من نُبوَّةٍ أو ولايةٍ أو أثرٍ عظيمٍ من الدينِ على الجُمْلَةِ

والسَّبَبُ في ذلك أنّكم لخُلُق التَّوحُّش الذي فيهم أصْعَبُ الأُمَمِ انقياداً بَعْضُهُم لبعض للْغلْظَة والأنَفَة وبُعْد الهمَّة والمنافَسَة في الرئاسة؛ فَقلَّما تجتمعُ تجتمعُ أهواؤهُمْ، فإذا كان الدين بالنبوَّة أو الولاية كانَ الوازعُ لهم من أنْفُسهم وذهب خُلُقُ الكبَر والمنافسة منهم فيسْهُلُ انقيادُهم واجتماعُهُم، وذلك بما يَشْمَلُهُمْ من الدين المُذهب للغلْظَة والأنَفَة الوازعِ عن التَحاسُد، والتنافُس. (١٥٣)

الملكُ والدولَةُ العامَّةُ إنما يَحْصُلانِ بالقَبِيْلِ والعَصَبِيَّةِ

الملكُ مَنْصبٌ شريفٌ ملذوذٌ يشتملُ على جميع الخيرات الدنيويَّة والشَّهوَات البدنيَّة، والملاذِّ النفسانيَّة فيقعُ فيه التنافُسُ غالبًا، وقلَّ أن يُسلِمَهُ أحدٌ لصاحبه إلا إذا غُلبَ عليه، فتقعُ المنازعة وتفضي إلى الحرب والقتال والمُغالبة؛ وشيءٌ منها لا يقعُ إلاَ بالعصبيَّة كما ذكرناهُ آنفًا.

وهذا الأمْرُ بعيدٌ عن أفهامِ الجمهورِ بالجملةِ، ومتناسون لَهُ؛ لأنهم نَسُوا عَهْدَ تمهيدِ الدولة منذُ أوَّلها. (١٥٦)

إذا استقرَّتْ الدولةُ وتمهَّدَتْ قد تستغني عن العصبيَّة

والسببُ في ذلك أن الدَّولَ العامَّةَ في أوَّلها يصعُبُ على النفوسِ الانقيادُ لها إلا بسترة قويَّة من الغَلَبِ للغرابَة، وأن النَّاسَ لم يألَفُوا مُلْكَها ولا اعتادوهُ فإذا استقرَّتْ الرئاسَةُ في أهلِ النِّصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوهُ واحداً بعد آخَرَ في أعقاب كثيرين، ودول متعاقبة نسيَتْ النفوسُ شأنَ الأوَّليَّة واستحْكَمَتْ لأهلِ النَّصابِ صبْغَتهُ الرِّئاسة ورسخَ في العقائد دينُ الانقياد لهم والتسليمِ، وقاتَلَ الناسُ معهم على أمرِهم قتالَهم على العقائد الإيمانيَّة فلم يحتاجوا حينئذ أي أمرِهم إلى كبيرِ عصبيَّة» (١٥٧).

الدِّيْنُ أساسُ بقاءِ الدُّوَلِ

وذلك لأنَّ المُلكَ إنَّما يحصُلُ بالتغلُّب، والتغلُّبُ إنما يكونُ بالعصبيَّة واتفاق الأهواء على المطالبَة. وجَمْعُ الشُّعوبِ وتأليفُها إنما يكونُ بمعونة من الله في إقامة دينه قال تعالى: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما أَلَّفْتَ بين قلوبهم﴾.

وسرهُ أنَ الشعوب إذا تداعَتْ إلى أهواء الباطلِ والمَيْلِ إلى الدنيا حَصَلَ التنافُسُ وفشا الخلافُ وإذا أنصرفَتْ إلى الحَقِّ ورفَضَتْ الدنيا والباطل وأقبلت على الله أتحدت وجَهتُها فذلك التنافُسُ وقلَّ الخلافُ وحُسنَ التعاوُنُ، والتَّعاضُدُ، واتَّسَعَ نطاقُ الكلمة لذلك، فعظمت الدولةُ. (١٥٩)

الدولةُ الدينيَّةُ تزيدُ الدولة في أصلِها قوةً على قوةِ العصبيَّة

والسببُ في ذلك: كما قدَّمْناهُ أنَّ الصبغَةَ الدينيَّةَ تذهبُ بالتنافُسِ والتحاسُدِ الذي في أهل العصبيَّةِ وتُفْرِدُ الوجهَةَ إلى الحقِّ فإذا حصلَ لهم الإستبصارُ في أمرِهم لم يقفْ لهم

شيء؛ لأنَّ الوُجْهَةَ واحدةٌ والمطلوبَ متساوٍ عندَهم، وهم مستميتون عليه، وأهلُ الدولة التي هم طالبوها وإن كانوا أضعافَهُم فأغراضُهُم متباينةٌ بالباطن، وتخاذُلُهُم لتقيه الموت حاصلٌ؛ فلا يُقاوِمونَهم وإن كانوا أكثر منهم بل يغلبون عليهم ويعاجلونهم الفناءُ بما فيهم من التَّرَف والذُّل كما قدَّمْناه وهذا كما وقعَ للعَرَبِ صدرَ الإسلام في الفتوحات. فكانت جُيُوشُ المسلمين بالقادسيَّة واليرموك بِضْعًا وثلاثين ألفًا في كُلِّ مُعَسْكر، وجموعُ فارس مائةً وعشرين ألفًا بالقادسيَّة، وجموعُ هرقل على ما قالهُ الواقديُّ أربعمائة ألف فلم يَقِفْ للعَرَبِ أحَدٌ من الجانبين وهزموهم وغلبوهم على ما بأيديهم. (١٥٩-١٦٠).

الدعوةُ الدينيةُ من غيرِ عصبيةٍ لا تَتِمُّ

وهذا لما قدَّمْناهُ من أنَّ كلَّ أمرٍ تُحمَلُ عليه الكافَّةُ فلابُدَّ له من العصبيَّة.

وفي الحديث: «ما بَعَثَ اللهُ نبيًا إلاَّ في مَنَعَةٍ من قَوْمِه»[1].

وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى بخَرْقِ العوائِد فما ظَنُّك بغيرِهِمْ ألاَّ تُخرَقَ له العادةُ في الغَلَبِ بغَيْرِ عصبيَّة». (١٦٠)

في أحوالِ بعضِ الثُّوَّارِ الذين لا قدرَةَ لهم على تغييرِ المُنْكَرِ

كثيرٌ من المنتحلين للعبادة وسلوك طُرُق الدين يذهبون إلى القيام على أهلِ الجور من الأمراءِ واعين إلى تغييرِ المُنكرِ والنَّهْي عنه، والأمرِ بالمعروفِ رجاءً في الثواب عليه

(١) السنُن الكبرى (١٩٩٤)، و«المعجم الكبير» (١٩٨٣) ولم يُرَدْ على أنه حديثٌ قالَهُ رسولُ الله - ﷺ -، وإنما رُوِي كقول لبعض الصحابَة قاله في وَصْف رسول الله - ﷺ - بأنَّه كان في مَنَعَة من قومه» لكن قد جاء في مسند أحمدَ (٢/ ٣٣٢) وسنن الترمذيِّ (٤/ ١٥٢) وحسَّنَهُ الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٤/ ١٥٢) من طَريق عن عمر بن عمرو عن أبي سلمةَ عن أبي هريرة مرفوعًا: «... رحمةُ اللهُ على لوط إن كان ليأوِيَ إلى ركن شديد» إذ قال لقومه: «لو أنَّ لي بكم قوةً أو آوي إلى ركنٍ شديد» وما بعثَ اللهُ من بعده من نبيٍّ إلّا في ثَرْوَةٍ من قومه».

من الله، فيكثُرُ أتباعُهم والمتشبِّثون بهم من الغَوغاء والدهْماء ويُعَرِّضُون أنفُسَهم في ذلك للمهالك وأكثرُهم يَهْلكون في هذا السبيل مأزورين غيْرَ مأجورين؛ لأنَّ اللهَ لم يكتبْ ذلك عليهم، وإنما أَمَرَ حيثُ تكونُ القدرَةَ عليه. قال -ﷺ-: «من رأى منكم منكرًا فليُغيِّرْهُ بيَدِه، فإن لم يستطعْ فبلسانه، فإن لم يستطِعْ فبقَلْبه»(1).

وأحوالُ الملوك والدُّول راسخةٌ قويَّةٌ لا يُزَحْزِحُها ويهدمُ بناءَها إلا المطالبة القويَّةُ التي من ورائها عصبيَّةُ القبائِل والعشائر كما قدَّمْناه. (١٦١).

حتى دعوةُ الأنبياءِ تَقْدُمُ على المنَـعَةِ من عصبيَّاتٍ وغـيرِها

هكذا حالُ الأنبياء -عليهمُ الصلاةُ والسَّلامُ- في دعوتهم إلى الله بالعشائر والعصائب، وهم المؤيَّدون من الله بالكون كُلِّه لو شاءَ؛ لكنَّهُ إنما أجرى الأمورَ على مستقرِّ العادَة، واللهُ حكيمٌ عليمٌ. فإذا ذهب أحدٌ من النَّاس هذا المذهَبَ وكان فيه محقًا قصَّر به الإنفرادُ عن العصبيَّة، فطاحَ في هواهُ الهلاكُ وأما إن كان من المُلبسين بذلك في طلب الرئاسة، فأجدرُ أن تعُوقَهُ العوائقُ وتنقَطِعَ به المهالكُ؛ لأنَّه أمرُ اللهُ لا يَتمُّ إلا برضاهُ وإعانته والإخلاص له والنَّصيحة للمسلمين؛ ولا يَشُكُّ في ذلك مسلمٌ، ولا يرتابُ فيه ذو بصيرة. (١٦١)

الدولةَ لها حصَّةٌ من الممالكِ والأوطانِ لا تزيدُ عليها

والسببُ في ذلك أنَه عصابَةَ الدولة وقدمَها القائمين بها الممهدين لها لابُدَّ من توزيعهم حصَصًا على الممالك والثُّغور التي تصيرُ إليهم، ويستولون عليها لحمايتها من العدُوِّ وإمضاء أحكام الدَّولَة فيها من جباية وردع وغير ذلك. فإن توزَّعَت العصائبُ كلُّها على الثُّغور والممالك فلابُدَّ من تنادٍ عَددها.

(١) رواه مسلم (١/ ٥٠ - ٥١).

وقد بلغت الممالكُ حينئذٍ إلى حدٍّ يكونُ ثغرًا للدَّولةِ وتخمًا لوطنِها ونطاقًا لمركزِ مُلكِها.

فإن تكلفت الدولةُ بعدَ ذلك زيادةً على ما بيَدِها بقي دُوْنَ حاميَّة وكان موضعًا لانتهازِ الفُرصَةِ من العدُوِّ المجاورِ، ويعودُ وبالَ ذلك على الدَّولَةِ، بما يكونُ فيه من التجاسُرِ وخَرقِ سياجِ الهيبَةِ، وما كانت العصابةُ موفورةً ولم ينفَدْ عددُها في توزيعِ الحِصَصِ على الثغورِ والنَّواحي، بَقِيَ في الدولةِ قُوَّةٌ على تناوُلِ ما وراءَ الغايةِ، حتَّى ينفسِحَ نطاقُها إلى غَايتِها. (١٦٣)

عظمةُ الدولةِ واتساعُ نطاقِها وطولُ أمدِها على نسبةِ القائمين بها قلةً أو كثرةً

والسببُ في ذلك أنَّ المُلْكَ إنَّما يكونُ بالعصبيَّةِ وأهلُ العصبية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها، وينقسمون عليها، فما كان من الدولة العامَّة قبلَها وأهل عِصابَتِها أكْثَرَ، كانت أقوى وأكْثَرَ مما بعده، وطانًا، وكان مُلْكُها أوسَعَ لذلك. (١٦٤)

الأوطانُ الكثيرةُ القبائِلِ والعصائبِ قَلَّ أن تَسْتَحكِمَ فيها دولةٌ

والسببُ في ذلك اختلافُ الآراءِ والأهواءِ، وأنَّ وراءَ كُلٍّ منها وهوىً عصبيةً تمانعُ دونَها؛ فيكثرُ الانتقاضُ على الدولة، والخروجُ عليها في كُلِّ وقت وإن كانت ذات عصبيَّةٍ ممَّنْ تحتَ يدها تظُنُّ في نفسها مَنَعَةً وقوَّةً. (١٦٥)

خُلُوُّ الدولةِ من العصبيَّاتِ

الأوطانُ الخاليةُ من العصبيات يسهلُ تمهيدُ الدولة فيها، ويكونُ سلطانُها وازعًا لقلَّةِ الهَرَجِ والانتقاضِ، ولا تحتاجُ فيها إلى كثير من العصبيات، كما هو الشأنُ في

مصرُ والشامِ لهذا العهد، إذ هي خلْو من القبائل والعصبيَّات، كأن لم يكن الشامُ مَعدنًا لهم كما قلناه، فمُلْكُ مصرَ في غايةِ الدَّعَة والرسوخِ لقلَّة الخوارجِ وأهل العصائبِ. (١٦٦).

كيف تحصلُ الغلبةُ للعصبيَّة

وذلك أن المُلْكَ -كما قدمناهُ- إنَّما هو بالعصبيَّة، والعصبيَّةُ متألفةٌ من عصبات كثيرة تكونُ واحدةٌ منها أقوى من الأخرى كُلِّها فتغلبُها وتستوي عليها، حتَّى تصيِّرَها جميعًا في ضِمْنِها، وبذلك يكُوْنُ الاجتماعُ والغَلَبُ على الناسِ والدُوَل. (١٦٧).

طبيعةُ المُلْك

الأمةُ لا يحصُلُ لها الملكُ إلا بالمطالبة، والمطالبةُ غايتُها الغلبُ والمُلْكُ وإذا حَصَلَت الغايةُ انقضى السَعْيُ إليها.

عجبتُ يسَعي الدَهْرِ بيني وبَيْنَها فلما انقضى ما بيننا سكَنَ الدَهْرُ

فإذا حصل الملكُ أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلَّفونها في طلبه وآثروا الراحةَ، والسكونَ والدَّعَةَ ورَجَعُوا إلى تحصيل ثمرات المُلْك من المباني والمساكنِ والملابسِ، فيبنون القُصُور، ويُجْرُون المياهَ، ويفرشُون الرياضَ ويستمتعُون بأحوالِ الدُنيا ويُؤْثِرون الراحةَ على المتاعب. (١٦٨).

عاقبةُ التَّرَفِ على الدُّوَلِ في انحلالِها وتفكُّكِها

الترفُ مُفْسِدٌ للخُلُق بما يحصُلُ في النفسِ من ألوانِ الشرِّ والسَفْسَفَة وعوائدها كما يأتي في فصل الحضارة فتذهبُ منهم خلالُ الخير التى كانت علامةً على الملك ودليلاً عليه، ويتَّصفون بما يناقضُها من خلالِ الشرِّ فتكون علامةً على الإدبار، والانقراضِ

بما جعلَ اللهُ من ذلك في خليقته، وتأخذُ الدولة مبادئَ القطبِ وتتضعضعُ أحوالها وتنزلُ بها أمراضٌ مزمنةٌ من الهرمِ إلى أن يُقضى عليها. (١٧٠)

دواءُ هَرَمِ الدولة

يحدثُ في الدولة، إذا طرقَها هذا الهرمُ بالترف والراحة أن يتخيرَ صاحبُ الدولة أنصاراً وشيعَةً من غيرِ جلدتهم ممن تعدَّوَ الخشونةَ فيتَّخذَهم جنداً يكونُ أصبَرُ على الحربِ وأقدرَ على مُعاناة الشدائد من الجوعِ والشظفِ ويكونُ ذلك دواءً للدولة من الهرمِ الذي يطرُقَها حتى يأذنَ اللهُ فيها بأمرِه. (١٧٠).

الدولة لها أعمارٌ طبيعيةٌ كما للأشخاص

عـمر الدولة لا يَعْدُو في الغـالـب ثلاثةَ أجيـال؛ لأنَّ الجيلَ الأوَّلَ لم يزالوا على خُفُقِ البداوة وخشونتها وتوحُّشها من شَظَفِ العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجـد، فلا تزالُ سَورةُ العَصـبيَّةِ محفـوظةً فيـهمَ فحْدُهم مرهفٌ وجانبُـهم مرهوبٌ، والناسُ لهم مغلوبون.

والجيلُ الثاني تحوَّلَ حالُهم بالمُلك والترفُّه من البداوة إلى الحضارة ومن الشظُف إلى التَّرفِ والخصب، ومن الاشتراك في المَجدِ إلى انفراد الواحد به وكسلِ الباقين عن السعي فيه ومن عزِّ الاستطالة إلى ذلِّ الإستكانة متنكرُ سَورةُ العصبية بعضَ الشيء وتؤنسُ منهم المَهانةُ والخضوعَ ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيلَ الأوَّلَ وباشروا أحوالَهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد ومراميهم في المدافعة والحمايةِ، فلا يسعُهم تركُ ذلك بالكلية، وإن ذهبَ منه ما ذهبَ ويكونون على رجاءٍ من مـراجـعـةِ الأحـوالِ التي كـانت للجيلِ الأوَّل، أو على ظنٍّ من وجودِها فيهم.

وأما الجيلُ الثالثُ فينسَون عهدَ البداوةِ والخشونة كأن لم تكنْ، ويفقدون حلاوةَ العزِّ والعصبيَّةُ بالجملة، وينسون الحمايةَ والموافقةَ والمطالبةَ ويلبسون على الناسِ في الشارة والزيِّ وركوبَ الخيل وحُسْنِ الثقافة يموهون بها وهم في الأكثرِ أجبنُ من النسوان على ظهورِها. فإذا جاء المطَالبُ لهم لم يقاوموا مدافعتَهُ، فيحتاجُ صاحبُ الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهلِ النجدة ويستكثرُ بالموالي، ويصطنِعُ من يغني عَن الدولة بعضَ الغنَاءَ، حتى يأذَنَ بانقراضها، فتذهبَ الدولةُ بما حملت فهذا كما تراهُ ثلاثةُ أجيال فيها يكونُ هَرمُ الدولة وتخلّفُها. (١٧٢).

في انتقال الدولةِ من البداوةِ إلى الحضارةِ

طورُ الحضارة في الملك يتَّبعُ طورَ البداوة ضرورةً لضرورة تبعيَّة الرِّفة للمُلك. وأهلُ الدُوَل -أبداً- يقلِّدون في طَور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قَبلَهم، فأحوالُهم يشاهدون، ومنهم في الغالبِ يأخذون ومثلُ هذا وقع للعربِ لما كان الفتحُ وملكوا فارسَ والرومَ واستخدموا جناتهم وأبناءَهُم ولم يكونوا لذلك العهدِ في شيءٍ من الحضارة». (١٧٢-١٧٣)

الترفُ في أوَّلِ الدولةِ يزيدُها قوةً إلى قوتِها

والسببُ في ذلك: أن القبيلَ إذا حصلَ لهم الملكُ والترفُ كُثَر التناسُلَ والوُلْدُ العموميَّةُ فكثرت العصابَةُ؛ واستكثروا -أيضًا- من الموالي والصنائع، وربيت أجيالُهُم في جوٍّ ذلك النعيمِ والرَّفه فازدادوا بهم عدداً إلى عددهم وقوةً إلى قوتهم بسببِ كثرة المصائب حينئذ يكثرُ العدوُّ. (١٧٤-١٧٥).

أطوارُ الدولةِ، من بُزُوغِها إلى هَرَمِها

حالاتُ الدولةِ وأطوارُها لا تعدو في الغالب خمسةَ أطوار.

الطورُ الأوَّلُ: طورُ الظفَرِ بالبُغيةِ وغلبُ المدافعِ والممانعِ والاستيلاء على الملك وانتزاعهُ من أيدي الدولة السَّالفة قبلَها فيكونُ صاحبُ الدولة وهذا الطور أسوةَ قومه في اكتساب المجد وجبايَة المال والمدافعة عن الحَوْزَة والحماية لا ينفرد دونَهم بشيء؛ لأنَّ ذلك هو مقتضى العصبيَّة التي وقعَ بها الغَلَبُ وهي لم تَزَلْ بعدُ بحالها.

الطورُ الثاني: طور الاستبداد على قومه والانفراد دونَهم بالمُلك وكَبْحهم عن التطاولِ للمساهمة والمشاركة، ويكونُ صاحبُ الدولة في هذا الطَّور معنيًا باصطناع الرجال واتِّخاذ المَوَالي والصنائعِ، والاستكثارِ من ذلك لجَدْعِ أنوفِ أهل عصبيَّته وعشيرته المُقاسمين له في نَسَبِه الضاربين في المُلك بمِثْلِ سهمه.

الطورُ الثالثُ: طورُ الفراغِ والدَّعَة لتحصيل ثمرات المُلك مما تنتزعُ طباعُ لبَشَرِ إليه من تحصيل المالِ وتخليد الآثار وبُعد الصِّيت؛ فيستفرغُ وسعَهُ في الجبايَة وضبط الدَّخْلِ والخَرْجِ وإحصاء النفقات والقَصْد فيها وتشييد المباني الحافلَة والمصانع العظيمَة والأمصار المُتّسعَة والهياكلِ المرتفعة، وإجازَة الوفود من أشراف الأمَم ووجوه القبائلِ وبثِّ المعروف في أهله هذا مع التَّوسعَة على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بالمال والجاه واعتراضِ[1] جُنوده وإدرار أرزاقهِمْ وإنصافهِمْ في أعطياتهم لكلِّ هلال حتَّى يظهَر ذلك عليهم في ملابسهم وشكَتهِمْ[2] وشارتهِمْ يومَ الزِّينَة، فيباهي بهم الدُّولَ المسالمَةَ، ويُرْهبُ الدُّولَ المحاربَةَ وهذا الطورُ آخرُ أطوار الاستبداد من أصحاب الدولة؛ لأنهم في هذا الطورِ مستقلُّون بآرائهم بانون لعزِّهِمْ، مُوَضحِّون الطُّرُقَ لمن بعدَهم.

(١) اعتراض: استعراضُ جُنْده.

(٢) شكتهم: سلاحُهم.

الطورُ الرابعُ: طورُ القنُوعِ والمسالَمة. ويكونُ صاحبُ الدولةِ في هذا قانعًا بما بنى أوْلوهُ، مسلمًا لأنظاره من الملوك وأقْتاله، مقلِّدًا للماضيين من سلَفه، فيتبعُ آثارَهُم حَذْوَ النعلِ بالنعلِ، ويقتفي طُرُقَهُم بأحْسَنِ مناهجِ الأقتداء، ويرى أنَّ في الخروجِ عن تقليدهم فسادَ أمرِه وأنَّهم أبصرُ بما بَنَوا من مَجْده.

الطَّوْرُ الخامسُ: طورُ الإسرافِ والتَّبذير. ويكونُ صاحبُ الدولةِ في هذا الطَّوْرِ مُتْلفًا لما جَمَعَ أوْلدهُ في سبيلِ الشهَواتِ والملاذِّ والكرَمِ على بطانَتِه وفي مجالسه، واصطناعِ أخْدانِ السُّوءِ وخفراءِ الديَن وتقليدهم عظيماتِ الأُمورِ التي لا يستقلُّونَ بحملهما، ولا يعرفون ما يأتون ويذرون منها، مستفسداً لكبارِ الأولياء من قومه وصنائعِ سَلَفِه، حتىَ يضْطَغُوا عليه، ويتخاذلوا عن نُصْرَتِه، مضيِّعًا من جنده بما أنفقَ من أعطياتهم في شهواته، وحَجَبَ عنهم وجهَ مباشرته وتنقُّده، فيكونُ مخربًا لما كان سلفُهُ يؤسِّسون، وهادمًا لما كانوا يبنون، وفي هذا الطَّوْرِ يحصُلُ في الدولةِ طبيعةُ الهَرَمِ، ويستولي عليها المرضُ المزمنُ التي لا تكادُ تُخلُصُ منه، ولا يكونُ لها معهُ بُرءُ، إلى أنْ تَنْقَرِضَ. (١٧٥ - ١٧٦)

آثارُ الدَّوْلَةِ كلُّها على نِسْبَةِ قُوَّتِها

السببُ في ذلكَ: أنَّ الآثارَ إنما تحدثُ عن القَوةِ التي بها كانَتْ أوَّلاً وعلى قدرها يكونُ الأثرُ.

فمن ذلك مباني الدولة وهياكلُها العظيمةُ، فإنما تكونُ على نسبَةِ قوَّة الدولة في أصلها؛ لأنَّها لا تتمُّ إلا بكثْرَةِ الفَعَلَة واجتماعِ الأيدي على العملِ والتعاون فيه، فإذا كانت الدولةُ عظيمه فسيحةُ الجوانبِ كثيرةَ الممالكِ والرعايا، كان الفَعَلَةُ كثيرين جداً

وحُشِروا من آفاقِ الدولة وأقطارِها، فتمَّ العملُ على أعظمِ هياكله. ألا ترى إلى مصانعِ قومِ عادٍ وثمودَ وما قَصَّها القرآنُ عنهما». (١٧٦-١٧٧).

في استظهارِ صاحبِ الدولةِ على قومِهِ وأهلِ عصبيتِهِ بالموالي والمُصْطَنَعين

اعلمْ أن صاحبَ الدولة إنما يَتمُّ أمرُهُ -كما قلناه- بقومه، فهم عَصابتُهُ وظَهَراؤه على شأنِه، وبهم بقارعُ الخَوارجَ على دولته، ومنهم من يقَلِّدُ أعمالَ مملكته ووزارة دولتِـه، وجبـايةَ أحـواله؛ لأنهم أعـوانُهُ على الغَلَبِ، وشـركـاؤهُ في الأمـر، ومساهموهُ في سائرِ مُهمَّاته هذا ما دامَ الطَّوْرُ الأوَّلُ للدولة كما قلناهُ. فإذا جاء الطَّوْرُ الثاني وظَهَرَ الاستبدادُ عنهم، والانفرادُ بالمجد، ودافَعَهمْ عنه بالمراحِ صاروا في حقيقةِ الأمرِ من بعضِ أعدائه، واحتاجَ في مُدافعتِهم عن الأمرِ وصَدِّهم عن المشاركة إلى أولياءَ آخرين من غير جِلْدَتِهمْ يستظهرُ بهم عليهمْ ويتولاهَمْ دونَهم فيكونون أقربَ إليه من سائرِهم، وأخَصَّ به تُربًا واصطناعًا، وأولى إيثارًا وجاهًا، لما أنهم يَسْتَميتُون دونَه في مدافعَة قومه عن الأمرِ الذي كان لهم، والرُّتْبَة التي ألِفُوها في مشاركتِهم فيستخلصُهم صاحبُ الدولة حينئذ، ويخصُّهم بمزيد التكرمَة والإيثارِ ويَقْسمْ لهم مثل ما للكثيرِ من قومه ويقلِّدُهم جليلَ الأعمال والولايات من الوزارة والقيادة والجباية وما يختصُّ به لنَفْسه وتكونُ خالصةً له دون قومه من ألقاب المملكَة؛ لأنَّهم حينئذ أولياؤُهُ الأقربون ونصحاؤهُ المخْلصون، وذلك حينئذ مُؤْذنٌ باهتضامِ[1] الدولة وعلامةٌ على المرضِ المُزْمنِ فيها؛ لفسادِ العصبيَّة التي كان بناءُ الغَلَبِ عليها.

---

(١) اهتضامُ: بمعنى رخاوة.

ومرضَ قلوب أهلِ الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان فيَضْطَغِنُون[1] عليه، ويتربَّصونَ به الدوائر، ويعودُ وبالُ ذلك على الدولة، ولا يُطْمَعُ في بُرْئها من هذا الداء؛ لأن ما مضى يتأكَّدُ في الأعقاب إلى أن يذهبَ رسمُها. (١٨٢-١٨٣).

في أحوالِ الموالي والمُصْطَنَعِين في الدُّوَلِ

يُحْمَلُ صَاحبُ الدولة على اصطناعِهم والعدول إليهم عن أوليائها الأقدمينَ وصنائعها الأوَّلين، ما يعتريهم في أنفسهم من العزَّة على صاحبِ الدولة، وقلَّة الخُضُوعِ له ونظره بما ينظرُهُ به قبيلُهُ، وأهلُ نسبه، لتأكُّد اللُّحْمَة منذُ العصور المتطاولة بالمربى والاتِّصالِ بآبائه وسلف قومه، والانتظامِ مع كبراء أهلِ بيته، فيحصُلُ لهم بذلك دالَّة عليه واعتزازٌ، فيُنَافِرُهُمْ بسَببها صاحبُ الدَوْلَة، ويعدلُ عنهم إلى استعمالِ سواهم؛ ويكونُ عهدُ استخلاصِهِمْ واصطناعهم قريبًا، فلا يبلُغونَ رُتَبَ المجدِ، ويبقون على حالهم من الخارجيَّة، وهكذا شأنُ الدُوَلِ في أواخرِها.

قد يعرضُ في الدول من حجرِ السلطانِ والاستبدادِ عليه

إذا استقَرَّ المُلكُ في نصابِ معينٍ ومنبت واحد من القبيلِ القائمين بالدولة، وانفردوا به ودفعوا سائر القبيلِ عنه وتداولَهُ بنوهم واحدًا بعد واحد بحَسْبِ الترشيحِ، فرُبَّما حَدَثَ التغلُّبُ على المَنْصِبِ من وُزَرائهم وحاشيتهمْ.

وسببُهُ في الأكثرِ ولايةُ صبيٍّ صغيرٍ أو مُضَعَّفٍ من أهلِ المنبت، يترشَّحُ للولاية بعهد أبيه أو بترشيحِ ذويه وخَوَله، ويؤنَسُ منه العجزُ عن القيامِ بالملك، فيقومُ به كافلهُ من وزراءِ أبيه، وحاشيته ومراميه أو قبيله، ويُورِّى عنه بحفظ أمره عليه حتَّى

(١) يضطعنون: يحقدون.

يؤنَسَ منه الاستبدادُ، ويَجْعَلُ ذلك ذريعةً للملك. . . وقد يَتَفَطَّنُ لذلك المحجورُ المُغَلَّب لشأنه فيحاولُ الخروجَ ربْقَة الحَجْر والاستبداد، ويُرجِعُ الملكَ إلى نصابه، ويضربُ على أيدي المتغلبين عليه إمَّا بقَتْلٍ أو برفع عنه الرُّتْبة فقط؛ إلا أن ذلك في االنادر الأقَلّ. (١٨٤-١٨٥).

حقيقةُ المُلك

الملكُ كما تراه منصبٌ شريفٌ تَتَوَجَّهُ نحوَهُ المطالباتُ ويحتاجُ إلى المرافعات.

ولا يتمُّ شيءٌ من ذلك إلا بالعصبيَّات كما مرَّ. (١٨٦).

تفاوتُ العصبيات

العصبياتُ متفاوتةٌ، وكلُّ عصبيَّة فلها تحكُّمٌ وتغلُّبٌ على من يليها من قدميها وعشيرتها. وليس المُلْكُ لكلِّ عصبيَّةٍ، وإنَّما المُلْكُ على الحقيقة لمن يَسْتَبْعدُ الرَّعيَّةَ ويَجْبي الأموالَ ويبعَثُ البُعوثَ ويحمي الثغُورَ، ولا تكونُ فوقَ يده يدٌ قاهرةٌ وهذا معنى الملك وحقيقَتُهُ في المشهور. (١٨٦-١٨٧).

من قصَّرت به عصبيَّتُهُ

من قَصَّرَتْ به عصبيَّتُهُ عن الاسْتعْلاء على جميع العصبيَّات والضرب على سائر الأيْدي، وكان فوقَهُ حكْمُ غيره فهو مُلْكٌ ناقصٌ لم تتمَّ حقيقَتُهُ؛ وهؤلاءَ مثل أُمراء النواحي ورُؤساء الجهات الذين تجمعُهم دولةٌ واحدةٌ. (١٨٧)

أساسُ بقاءِ الملك وزوالِهُ

يعودُ حسنُ المَلكة إلى الرِّفْق؛ فإنَّ المَلكَةَ إذا كان قاهرًا، باطشًا بالعُقوبات، مُنَقبًا عن عَوْراتِ النَاسِ وتعديد ذُنوبهمْ، شملَهُمُ الخوف والذُلُّ، ولاذوا منْهُ

بالكذبِ والمكرِ والخديعة فَتَخلَّقُوا بها، وفَسَدَتْ بصائرهُم وأخلاقُهم؛ وربُمَّا خذلوه في مواطنِ الحروبِ والمدافعات فَفَسُدَت الحمايَةُ بفساد النيَّات، وربُّما أجمعوا على قَتْله لذلك فتفسُدُ الدَّولَةُ ويُخَرَّبُ السياجُ؛ وإن دامَ أمرُهُ عليهم وقهرُهُ فَسُدَتِ العَصبيَّةُ كما قلناهُ أوَّلاً، وفَسَدَ السِّياجُ من أصْلِه بالعجزِ عن الحمايَة.

وإذا كان رفيقًا بهم متجاوزًا عن سيئاتهمْ استنامُوا إليه ولا ذُوابه وأُشربوا محبَّتَهُ واستماتوا دونَهُ في مُحاربَةِ أعدائه، فاستقامَ الأمْرُ من كُلِّ جانبٍ. (١٨٧).

سياسةُ الدنيا والدِّين

إذا كانت القوانينُ مفروضةً من العُقَلاَءِ وأكابرِ الدولة وبُصَرائها كانت سياسةً عقليةً؛ وإذا كانت مفروضةً من الله بشارع يُقَرِّرُها ويُشَرِّعُها كانت سياسةً دينيَّةً نافعةً في الحياة الدُنيا وفي الآخرةِ وذلك أنَّ الخَلْقَ لَيسَ المقصودُ بهم دنياهم فقط، فإنَّها كلَّها عبثٌ وباطلٌ إذْ غايتُها الموتُ والفناء واللهُ يقول: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا** ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

فالمقصودُ إنَما هو دينُهُمُ المُفْضي بهم إلى السعادَةِ في آخرتهم. ﴿ **صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ** ﴾

[الشورى: ٥٣].

فجاءت الشرائعُ بحملِهم على ذلك في جميع أحوالِهم من عبادة ومعاملة حتَّى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنسانيِّ، فأجْرَتْهُ على منهج الدينِ ليكونَ الكُلُّ محوطًا بنظرِ الشارِعِ. (١٨٨-١٨٩).

حُكْمُ مَنْصِبِ الإمامةِ

نصبُ الإمامِ واجبٌ قد عُرِفَ وجوبُهُ في الشَّرعِ بإجماعِ الصَّحَابةِ والتَّابعينَ؟ لأن أصحابَ رسولَ الله -ﷺ- عند وفاته بادَرُوا إلى بيعةِ أبي بكرٍ -رضى الله عنه- وتسليمِ النَّظَرِ إليه في أمورِهم. وكذا في كُلِّ عصرٍ من بعدِ ذلك.

ولم تُتركِ الناسُ فوضى في كلِّ عصرٍ من الإعصار. واستقرَّ ذلك إجماعًا دالاً على وجوبِ نصبِ الإمامِ. (١٩٠).

شُروطُ مَنْصِبِ الإمامةِ

أمَّا شروطُ هذا المنْصِبِ فهي أربعةٌ:

العلمُ، والعدالة، والكفايةُ، وسلامةُ الحواسِّ، مما يؤثِّرُ في الرأي والعملِ، واختُلِفَ في شرطِ خاصٍ وهو النَّسَبُ القُرَشيُّ». (١٩١).

كما تكونوا يولّى عليكم

سألَ رجلٌ عليًا -رضى الله عنه- ما بالُ المسلمين اختَلَفُوا عليكَ، ولم يختَلفوا على أبي بكرٍ وعُمَرَ؟

فقالَ: لأنَّ أبا بكرٍ وعُمَرَ كانا وليَّيْنِ على مثلي وأنا اليومَ والٍ على مثلكَ يشيرُ إلى وازعِ الدِّينِ. (٢٠٧).

خروجُ الحُسينِ على يزيدٍ في حالٍ من عدمِ العصبيَّةِ

أما الحسينُ - رضيَ اللهُ عنهُ- فإنهُ لما ظَهرَ فسقُ يزيدَ عند الكافَّة من أهلِ عصرِهِ، بعثت شيعةُ أهلِ البيتِ بالكونة للحسينِ أن يأتيَهُمْ فيقوموا بأمرِهِ.

فرأى الحسينُ أنَّ الخروجَ على يزيدَ متعيِّنٌ من أجلِ فسقه لا سيَّما من لهُ القدرةُ على ذلك. وظنَّها من نفسه بأهليَّته وشَوْكَته، وأمَّا الأهليةُ فكانت كما ظَنَّ وزيادةً، وأما الشَّوكَةُ فغلطَ -يرحمُهُ اللهُ- فيها؛ لأنَّ عصبيةَ مُضَرَ كانت في قريشٍ وعصبيَّة قريشٍ في عبدِ منافٍ وعصبيَّةَ عبدِ منافٍ إنما كانت في بني أميَّةَ، تَعرِفُ ذلك لهم قريشُ وسائرُ الناس» (٢١١).

الطَّعْنُ في الصحابَةِ

إيَّاك أن تعوِّدُ نفسَكَ أو لسانَكَ التعرُّضَ لأحدٍ منهم، ولا تُشَوِّشْ قلبَكَ بالرِّيْبِ من شيءٍ ممَّا وَقَع منهم؛ والتَمِسْ لهم مذاهبَ الحَقِّ وطُرُقَهُ ما استطعْتَ فهم أولى الناسِ بذلكَ» (٢١٣).

الخِطَطُ الدينيَّةُ

اعلمْ أن الخِطَطَ الدينيَّةَ الشرعْيَةِ من الصَّلاةِ والفُتْيا والقضاءِ والجهادِ والحِسْبةِ كُلُّها مندرجةٌ تحتَ الإمامَةِ الكبرى التي هي الخلافَةُ» (٢١٣).

مقدارُ الدِّرْهَمِ والدينارِ الشَّرْعِيَّيْنِ

اعلمْ أنَّ الإجماعَ مُنْعَقِدٌ منذ صَدرِ الإسلامِ وعهدِ الصحابةِ والتَّابعينَ أن الدِّرْهَمَ الشرعيَّ هو الذي تَزِنُ العَشَرةُ منه سبْعَةَ مثاقيْلَ من الذَّهَبِ، والأوقيةُ منه أربعين دِرهَمًا وهو على هذا سبعةُ أعشارِ الدينارِ، ووَزْنُ المثقالِ من الذهبِ اثنتان وسبعون حبَّةً من الشعيرِ. فالدِّرْهَمُ الذي هو سبعَةُ أعشاره خمسون حبةً وخُمسًا حبَّة. وهذه المقاديرُ كُلُّها ثابتةٌ بالإجماعِ. (٢٥١).

أسبابُ الحروبِ بين الأمَم

اعلم أن الحروبَ وأنواعَ المقاتَلَة لم تَزَلْ واقعةً في الخليقة منذُ برأها اللهُ وأصلُها إرادةُ انتقامِ بعضِ البَشَرِ من بعضٍ، ويتَعَصَّبُ لكلٍّ منها أهلُ عصبيَّتة، فإذا تذامَروا لذلك وتوافقت الطائفتان أحداهما تطلبُ الانتقام والأُخرى تُدافعُ كانت الحَرْبُ وهو أمرٌ طبيعيٌّ بين البَشَرِ لا تخلو عنه أمَّةٌ ولا جيلٌ.

وسببُ هذا الانتقامِ في الأكثرِ: إمَّا غيرةٌ ومُنَافَسَةٌ؛ وإمَّا عُدوانٌ؛ وإمَّا غضبتٌ لله ولدينه؛ وإمَّا غضبٌ للمُلْك وسعيٌ في تمهيده، فالأوّلُ أكثرُ ما يجري بين القبائلِ المتجاورَة، والعشائرِ المتناظرة. والثاني: وهو العدوانُ أكثرُ ما يكونُ من الأمِمِ الوحشيَّة الساكنين بالقَفْرِ كالعربِ والتُرْك والتركمان والأكرامِ وأشباههمْ، لأنهم جَعَلوا أرزاقَهم في رماحيهْم، ومعاشَهُمْ فيما بأيدي غيرهم، ومن دافَعَهُمْ عن متاعه آذَنُوهُ بالحَرْبِ، ولا بُغْيَةَ لهم فيما وراءَ ذلك من رُتْبَةٍ ولا مُلك، وإنما هَمُّهُم ونُصْبُ أعيُنهمْ غلبُ الناسِ على ما في أيديهم.

الثالثُ: هو المسمَّى في الشريعةِ بالجهادِ. والرابعُ: هو حروبُ الدُولِ مع الخارجينَ عليها والمانعين لطاعتها.

فهذه أربعة أصناف من الحروب: الصنفان الأوَّلان منها حروبُ بَغْيٍ وفتنة؛ والصنفان الأخيرانِ حروبُ جهادٍ وعَدْلٍ. (٢٥٨)

وصفُ الحروبِ بين الأمَم

صفةُ الحروبِ الواقعة بين الخليقةِ منذُ أوَّلِ وجودهِم على نوعين: من نوعٍ بالزَّحْفِ صفوفًا.

ونوع بالكرِّ والفرِّ. أما الذى بالزَّحف فهو قتالُ العجم كلِّهم على تعاقُبِ أجيالهم. وأما الذي بالكرِّ والفرِّ فهو قتال العربِ والبَرْبَرِ من أهْلِ المغربِ. وقتالُ الزَّحْفِ أوثقُ وأشدُّ من قتالِ الكر والفر. (٢٥٨).

الغَلَبَ إنما يَتِمُّ لأهلِ العصبيَّةِ الواحِدَةِ

الصحيحُ المُعْتَبَرُ في الغَلَبِ حالَ العصبيَّةِ أن يكونَ في أحَدِ الجانبين عصبيَّةٌ واحدةٌ جامعةٌ لكلهم وفي الجانبِ الآخرِ عصائبُ متعدِّدَةٌ يقعُ بينهم من التخاذُلِ ما يَقَعُ في الوُحْدانِ المتفرقين الفاقدينَ للعصبيَّة، إذا تُنَزَّلُ كلُ عصابة منهم منزلةَ الواحدِ، ويكونُ الجانبُ الذي عصابَتُهُ متعددةٌ لا يقاوِمُ الجانبَ الذي عصابتُهُ واحدةٌ لأجلِ ذلك فَتَفَهَّمْهُ. (٢٦٤).

الظلمُ مؤذِنٌ بخرابِ العُمْرانِ

اعلم أنَّ العُدوانَ على الناسِ في أموالِهم ذاهبٌ بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لم يرونَهُ حينئذٍ من أنْ غايَتَها ومصيرَها انتهابُها من أيديهم. وإذا ذهبَتْ آمالُهم في اكتسابها وتحصيلِها انقبضَتْ أيديهم عن السَعْيِ في ذلك.

وعلى قدرِ الاعتداءِ ونسبَتِه يكونُ انقباضُ الرعايا عن السعي في الاكتسابِ وعلى قدرِ الاعتداءِ ونسبَتِه يكونُ انقباضُ الرعايا عن السعي في الاكتسابِ فإذا كان الاعتداءُ كثيراً عامًا في جميعِ أبوابِ المعاشي كان القُعُودُ عن الكَسْبِ على لذهابه بالآمالِ جملةً بدخولِهِ من جميع أبوابِها، وإن كان الاعتداءُ يسيراً كان الانْقباضُ عن الكَسْبِ على نِسبَتِهِ. (٢٧٢)

الهَرَمُ إذا نزل بالدولة لا يرتفعُ

إذا كان الهَرَمُ طبيعيًا في الدولة، كان حدوثُهُ بمثابَة حدوث الأمور الطبيعيَّة كما يحدُثُ الهَرَمُ والهَرَمُ من الأمراضِ المزمنَة التي لا يُمكِنُ دواؤها ولا ارتفاعُها؛ كما أنَّهُ طبيعيٌّ، والأمورُ العصبيَّةُ لا تتبدَّلُ. (٢٧٨)

طروقُ الخَلَل للدولَة

اعلم أنَّ مبنى المُلْك على أساسيْنِ لابُدَّ منهما.

- فالأوَّلُ: الشَّوكَةُ والعصبيَّة، وهو المعَبَّرُ عنه بالجُنْد؛

- والثاني: المالُ الذي هو قِوامُ أولئك الجند، وإقامَةُ ما يحتاجُ إليه المُلْكُ من الأحوالِ، والخَلَلُ إذا طَرَقَ الدولةَ طرقَها من هذين الأُساسَيْنِ. (٢٧٩).

التَّرفُ سببٌ في فنَاءِ الدَّوْلَةِ

إذا استفحَلَ العزُّ والغَلَبُ وتوفَّرت النِعَمُ والأرزاقُ بدُرور الجبايات، وزفَرَ بحرُ التَرف والحضارةِ، ونشأت الأجيالِ على اعتبارِ ذلك لَطُفَتْ أخلاقُ الحامية ورقَّتْ حواشيهم.

وعاد من ذلك إلى نفوسهم هيئات الجُبْن والكَسَلِ، بما يعانونَهَ من خَنَث الحضارَة المؤدِّي إلى الانسلاخِ من شعارِ البأس والرجوليَّة، بمفارقة البداوَة وخشونَتها، ويأخذُهُمْ العزُّ بالتطاوُل إلى الرئاسة والتنازُعِ عليها؛ نيُفضَي إلى قَتلِ بعضهِمْ ببعضٍ. (٢٨٢)

العصبيَّةُ ضروريةٌ لإقامَةِ المُلْك

الحقُّ الذي ينبغي أن يتقرَّرَ لديكَ أنَّه لا يتمُّ دعوةٌ من الدين والمُلْك إلا بوجود شوكةٍ عصبيَّة تُظْهِرُهُ وتُدافِعُ عنهُ منَ يدفعهُ حتَّى يَتمَّ أمرُ الله فيه. (٣١١).

المُلْكُ يدعو لنزولِ الأمصارِ

القبائلُ والعصائبُ إذا حَصَلَ لهم المُلْكُ اضطراً للاستيلاء على الأمصارِ لأمْرَين: أحدُهما ما يدعو إليه الملكُ من الدَّعِة والراحة وحطِّ الأثقال، واستكمالِ ما كان ناقصًا من أمورِ العُمْرانِ في البَدْوِ.

والثاني: دفعُ ما يُتَوَقَّعُ على المُلْكِ من أمرِ المنازِعينَ والمُشَاغبينَ (٣٢٧).

في أسعارِ المُدُنِ

إذا استبْحَرَ المصْرَ وكَثُرَ ساكنُهُ، رخُصَتْ أسعارُ الضروريِّ من القُوت وما في معناه، وتَمَلَتْ أسعارُ الكمالي من الأدَمِ والفَواكه وما يتبعُها، وإذا قَلَّ ساكنُ المصْرِ وضَعُفَ عمرانُهُ، كان الأمرُ بالعكْسِ من ذلك. (٣٤٤).

قصورُ أهلِ الباديةِ عن سكنى المِصْرِ

والسببُ في ذلك أنَّ المِصْرَ الكثير العمران يكثرُ ترفَهُ كما قدمناهُ وتكثُرُ حاجاتُ ساكنه من أجلِ التَّرَف وتُعتادُ تلكَ الحاجاتُ لما يدعو إليها، فتنقلبُ ضرورات وتصيرُ الأعمالُ فيه كلُّها مع ذلك غريزة والمرافقُ غاليةً بازدحامِ الأغراضِ عليها من أجلِ الترفَ، وبالمغارمِ السلطانيْة التي توضَعُ على الأسواق والبياعات وتعتبرُ في قيمِ المبيعات، ويعظُمُ فيها الغلاءُ في المرافق والأقوات والأعمال فيكثرُ لذلك نفقاتُ ساكنة كثرةً بالَغةً على نسبة عمرانه، ويعظمُ خرجُهُ، فيحتاجُ حينئذ إلى المال الكثير للنَّفَقَة على نفسه وعياله في ضرورات عَيْشهم وسائر مؤونتهم، والبدويُّ لم يكن دخلُهُ كثيرًا. إذ كان ساكنًا في مكان كأسد الأسواق في الأعمال التي هي سببُ الكَسْب، فلم يتأثَّل كَسْبًا ولا مالاً فيتعذَّرُ عليه من أَجلِ ذلك سُكنى المصرِ الكبير لغَلاء مرافقه وعزَّة حاجاته. (٣٤٦).

نزولُ المُدُنِ سَبَبٌ للرِّزْقِ

اعلمْ أنَّ ما توفَّرَ عمرانُهُ من الأقطار، وتعدَّدَت الأُمَمُ في جهاته، وكثرُ ساكنُهُ، اتَّسعَت أحوالُ أهلِه، وكثُرَت أموالُهم وأمصارُهُم وعظُمَتْ دُوَلُهم وممالكُهم. (٣٤٧).

جَوْرُ السُّلطانِ

أكثرُ الأحكامِ السلطانيَّةِ جائرةٌ في الغالبِ، إذ العَدْلُ المَحْضُ إنما هو في الخلافةِ الشرعيَّةِ وهي قليلَةُ اللَّبث. (٣٥٠)

السلطانُ والدولةُ سوقُ العالَمِ

السلطانُ والدولةُ سوقُ العالَمِ؛ فالبضائعُ كلُّها موجودةٌ في السُّوقِ وما قَرُبَ منه، وإذا بُعَدتْ عن السُّوقِ افتُقِدت البضائعُ جُملةً. ثم إنَّه إذا اتصلت تلكَ الدَّوْلَةُ وتعاقَبَ ملوكُها في ذلك المصر واحدًا بعدَ واحدٍ، استحكمت الحضارةُ فيهم وزادَتْ رسوخًا. (٣٥٠-٣٥١)

لِكلِّ شَيْءٍ إذا ما تَمَّ نُقصانُ

قد بيَّنا لك فيما سلفَ، أنَّ المُلكَ والدُّوَلَ غايةٌ للعصبيَّة، وأنَّ الحضارةَ غايةٌ للبداوَةِ، وأن العمرانَ كلّه من بداوة، ومُلْكٍ وسُوقَةٍ له عمرٌ محسوسٌ.

كما أنَّ للشخصِ الواحدِ من أشخاصِ المكوَّنات عُمْرًا محسوسًا وتبيَّنَ في المعتدلِ والمنقولِ أنَّ الأربعينَ للإنسانِ غايةٌ في تزايُدِ قُواهُ ونموِّها، وأنه إذا بلغ سنَّ الأربعينَ للإنسانِ غايةٌ في تزايدُ قُواهُ ونموِّها، وأنه إذا بلغَ سنَّ الأربعينَ وقَفَتْ الطبيعةُ في أثرِ النشوءِ والنموِّ بُرْهَةً، ثُمَّ تأخُذُ بعد ذلك في الانحطاط.

فَلْتَعْلَمْ أن الحضارةَ في العُمرانِ -أيضًا- كذلك؛ لأنَّهُ غايةٌ لا مَزِيدَ وراءَها. (٣٥٢-٣٥٣)

في أخلاقِ أهلِ الحَضَر

الإنسانُ إنما هو إنسانٌ باقتداره على جَلْبِ منافعه ودفْعِ مضارِّه، واستقامَةِ خُلُقه للسَّعي في ذلك، والحفريَّ لا يَقْدِرُ على مباشرة حاجاته إمَّا عجزًا لما حصل له من الدَّعة؛ أو ترفُّعًا لما حصل له من المَرْبى في النعيمِ والتَّرَفِ. وكلا الأمرين ذميمٌ.

وكذلك لا يقومُ على دفعِ المضارِّ واستقامَةِ خُلُقه للسَّعي في ذلك.

الحضريُّ بما قد فقد من خُلُقِ البأسِ بالتَّرَفِ والنعيمِ في مَهْرِ التأديبِ والتعليمِ؛ فهو بذلك عَيَّالٌ على الحاميَه التي تدافعُ عنه.

ثم هو فاسدٌ -أيضًا- في دينه غالبًا بما أفسَدَتْ منه العوائدُ وطاعتُها، وما تلوَّنَتْ به النفسُ من ملكاتِها كما قرَّرْناهُ إلا في الأقلِّ النادرِ.

وإذا فُسَدَ الإنسانُ في قدرته ثم في أخلاقِه ودينه، فقد فَسَدَتْ إنسانيَّتُهُ وصارَ مَسْخًا على الحقيقة. (٣٥٥)

لغاتُ أهلِ الأمصارِ

اعلمْ أن لُغات أهلِ الأمصارِ إنَّما تكونُ بلسانِ الأمَّة، أو الجيْلِ الغالبَيْنَ عليها أو المختطينَ لها؛ ولذلك كانت لغاتُ الأمصارِ الإسلاميَّة كلِّها بالمشرق والمغرب لهذا العهدِ عربيَّةً، وإن كان اللسانُ العربي المغربيُّ قد فَسُدَتْ ملكتُهُ وتغيَّرَ إعرابُهُ، والسببُ في ذلك ما وقعَ للدولَةِ الإسلاميَّةِ من الغَلَبِ على الأمَمِ. (٣٦٠).

في سَعَةِ الرزْقِ وقلَّتِه

اعلمْ أنه إذا فُقِدَت الأعمالُ، أو قلَّتْ بانتقاص العمران، تأذَّنَ الله برفع الكَسْب. ألا ترى إلى الأمصار القليلة الساكن، كيف يقلُّ الرزقُ والكسبُ فيها، أو يُفقَدُ، لقلَّة الأعمال الإنسانية. وكذلك الأمصارُ التي يكونُ عمرانُها أكثَرَ، يكونُ أهلُها أوسعَ أحوالاً وأشدَّ رفاهيةً. (٣٦٣).

في أنَّ الجاهَ مفيدٌ للمالِ

وذلك أنَّا نجدُ صاحبَ المال والحُظْوَة في جميعِ أصناف المعاشِ أكثَرَ يساراً وثروةً من فاقد الجاه، والسَّبَبُ في ذلك أن صاحبَ الجاه مخدومٌ بالأعمال يُتقرَّبُ بها إليه في سبيل التزَلُّفِ والحاجَة إلى جاهه. (٣٧٠)

في تَنَوُّعِ الجاهِ

إنَّ الجاهَ متوزِّعٌ في الناسِ ومُتَرَتِّبٌ فيهم طبقةً بعد طبقة، فينتهي في العُلُوِّ إلى الملوك الذين ليس فوقهم يَدٌ عاليةٌ وفي السُفْلِ إلى من لا يملكُ ضرّاً ولا نفعًا بين أبناء جنسه وبين ذلك طبقاتٌ متعدِّدَةٌ. (٣٧١)

أسبابُ الحصولِ على الجاهِ

الخضوعُ والتَّمَلُّقُ من أسباب حصولِ هذا الجاهِ المُحَصِّلِ للسعادَةِ والكَسْبِ، وإنَّ أكثَرَ أهلِ الثروة والسعادَة بهذا الخُلُقِ.

ولهذا نجدُ أكثرَ ممَّن يتخلَّقُ بالترفُّعِ والشَّمَمِ، لا يحصُلُ لهم غرضٌ من الجاهِ، فيقتصرونَ في التكسُّبِ على أعمالِهم، ويصيرونَ إلى الفَقْرِ والخصاصَة.

عاقبةُ الكبْرِ والترفُّع

اعلم أنَّ هذا الكبْرَ والتَّرفُّعَ من الأخلاق المذمومَة إنما يحصُلُ من توهُّمِ الكمال، وأنَّ الناسَ يحتاجون إلى بضاعته من علم أو صناعة كالعالم المتبحِّر في علمه، أو الكاتب المجيد في كتابته، أو الشاعر البليغ في شعره. وكلُّ محسن في صناعته يتوهَّمُ أنَّ الناسَ محتاجونَ لما بيده؛ فيحدُثُ له ترفُّعٌ عليهم بذلك، وكذا يتوهَّمُ أهلُ الأنساب ممن كان في أبائه مَلِكٌ أو عالمٌ مشهورٌ أو كاملٌ في طور يعبِّرونَ به بما رأوهُ أو سمعوهُ من حال آبائهم في المدينة، ويتوهَّمون أنهم استحقُّوا مثلَ ذلك بقرابتهم إليهم وورثتهم عنهم.

فهم متمسِّكون في الحاضر بالأمر المعدوم إذ الكمالُ لا يُورَّثُ وكذلكُ أهلُ الحيلَة والبَعَر والتجارُب بالأمور، قد يتوهَّم بعضُهُم كمالاً في نَفْسه بذلك واحتياجًا إليه. وتجدُ هؤلاء الأصنافَ كلَّهُم مترفِّعينَ، لا يَخْضَعُونَ لصاحب الجاه، ولا يتملَّقُون لِمَنْ هو أعلى منهم، ويَسْتَصْغرونَ من سواهُم لاعتقادهم الفَضْلَ على الناس؛ فيستنكفُ أحدُهُمْ عن الخضوع ولو كان للمَلك، ويَعُدُّه مذلَّةً وهوانًا وسفَهًا. ويحاسبُ الناسَ في معاملتهم إياهُ بمقدار ما يتوهَّمُ في نفسه ويحقدُ على مَنْ قصَّرَ له في شيءٍ مما يتوهَّمُهُ من ذلك.

وربما يُدْخلُ على نفسه الهمومَ والأحزانَ من تقصيرهم فيه، ويستمرُّ في عناء عظيم من إيجاب الحقِّ لنفسه أو إبايَة الناس له من ذلك. ويحصلُ له المَقْتُ من الناس لما في طباع البَشَر من التألُّه.

وقَلَّ أن يُسَلِّمَ أحدٌ منهم لأحد في الكمال والترفُّع عليه، إلا أن يكونَ ذلك بنوعٍ من القهر والغَلَبَة والاستطالة.

وهذا كُلُّه في ضِمْنِ الجاه. فإذا فقدَ صاحبُ هذا الخُلُق الجاهَ، وهو مفقودٌ له كما تبيَّن لك، مقَتَهُ الناسُ بهذا الترفُّعِ ولم يحصلْ له خطٌّ من إحسانهم وفقد الجاهَ كذلك من أهلِ الطبقة التي هي أعلى منه، لأجلِ المقت وما يحصُلُ له بذلك من القعود عن تعاهُدهم وغشيان منازلهم؛ ففسُدَ معاشُهُ، وبقي في خَصاصةٍ وفَقْرٍ أو فوق ذلك بقليلٍ. وأما الثروةُ فلا تَحصُلُ له أصلاً. (٣٧٢-٣٧٣)

حالُ السُّوقَهِ وأهلِ الدالَّةِ مع السلطانِ

وكثيرًا من السُّوقَةِ يَسعى في التَّقرُّبِ من السُّلطان بجدِّه ونُصْحه، ويتزلَّفُ إليه بوجده خدمته، ويستعينُ على ذلك بعظيمٍ من الخضوعِ والتملُّق له ولحاشيته وأهل نسبه. حتَّى يرسُخَ قدمُهُ معهم، ويَنْظِمَهُ السلطانُ في جملته؛ فيحصُلُ له بذلك حظٌّ عظيمٌ من السعادة، وينتظمُ في عددِ أهلِ الدولة، وناشئةُ الدولة حينئذ من أبناء قومها الذين ذلَّلوا أضغانَهم، ومهَّدُوا أكنافَها مفترِّين بما كان لآبائهم في ذلك من الآثارِ وتَشمخ به نفوسُهُمْ على السلطان ويعتدُّون بآثاره، ويَجْرُونَ في مضمارِ الدالَّة بسَبَبِه فيمقُتُهُم السُلطانُ لذلك ويباعُدهُم. ويميلُ إلى هؤلاء المُصْطَنعَين الذين لا يعتدُّون بقديمٍ، ولا يذهبونَ إلى دالَّةٍ ولا ترفُّعٍ. (٣٧٣-٣٧٤).

في أنَّ القائمين بأمورِ الدِّينِ من القضاءِ والتدريس والإمامةِ والخطابةِ ونحوِ ذلك لا تعظُمُ ثروتُهم في الغالبِ

والسببُ في ذلك أن الكَسْبَ كما قدَّمناهُ قيمةُ الأعمال، وأنها متفاوتةٌ بحَسَبِ الحاجَةِ إليها. فإذا كانت الأعمالُ ضروريَّةً في العمرانِ عامَّةَ البلوى فيه، كانت قيمتُها أعظمَ وكانت الحاجةُ إليها أشدَّ. وأهلُ هذه الصنائعِ الدينيَّة لا تضطرُّ إليهم عامَّةُ الخلقِ. وإنما يحتاجُ إلى ما عندهم الخواصُّ ممن أقبلَ على دينه. وإن احتيجَ إلى

الفُتيا والقضاء في الخصومات، فليسَ على وجه الاضطرار والعموم فيقعُ الاستغناءُ عن هؤلاء في الأكثر. وإنما يهتمُّ بهم وبإقامة مراسمهم صاحبُ الدولة بما نالَهُ من النظرِ في المصالحِ فيقسمُ لهم حظًا من الرِّزْق على نسبة الحاجة إليهم على النحو الذى قرَّرناه، ولا يساويهم بأهل الشَّوكة. ولا بأهلِ الصنائع الضروريَّة، وإن كانت بضاعتُهُم أشرَفَ. (٣٧٤).

الفلاحةُ من معاشِ المُسْتَضعفين وأهــل العافيــةِ مــن البَــدْوِ

وذلك لأنه أصيلٌ في الطبيعَة وبَسيطٌ في منحاهُ، ولذلك لا تَجدُهُ ينتحلُهُ أحدٌ من أهلِ الحفَرِ في الغالبِ، ولا من المُتْرَفينَ. ويختَصُّ منتحلُهُ بالمذلَّة

قال ﷺ-، وقد رأى السكَّةَ ببعضِ دور الأنصار: «**ما دخلَتْ هذه دارَ قومٍ إلا دَخلهُ الذُلُّ**». وحملهُ البُخاريُّ على الاستكثارِ والسببُ فيه -واللهُ أعلمُ- ما يتبعُها من المغْرَمِ المفضي إلى التحكمِ واليدِ العاليةِ، فيكونُ الغارمُ ذليلاً بائسًا، بما تناولَهُ أيدي القهرِ والاستطالةِ.

أخلاقُ التجارِ نازلةً عن أخلاقِ الأشرافِ والملوكِ

التجارُ في غالبِ أحوالهم إنما يعانون البيعَ والشَّراءَ، ولابُدَّ من المكايسَة ضرورةً. فإن اقتصر عليها اقْتَصَرتْ به على خُلُقها، وهي أعني خُلُقَ المكايسَة، بعيدةٌ عن المروءَة التي تتخلَّقُ بها الملوكُ والأشرافُ.

وأمَّا إن استرْذلَ خُلُقُهُ بما يتبَعَ ذلك في أهلِ الطبقَة السُّفلى منهم، من المماحكة والغِشِّ والخلابَة وتعاهُدِ الأيمانِ الكاذبَة على الأثمانِ ردًا وقبولاً، فأجدرْ بذلكَ الخُلُقِ

أن يكونَ في غَايَةِ المذلّة لما هو معروفٌ ولذلك تجدُ أهلَ الرئاسةِ يتحامَوْنَ الاحترافَ بهذه الحِرْفَةِ لأجلِ ما يُكْسِبُ من هذا الخُلُقِ. وقد يوجَدُ منهم مَنْ يسلَمُ من هذا الخُلُق ويتحاماه، لشَرَفِ نَفْسِه وكرمِ جلالِه؛ إلاَّ أنه في النادرِ بينَ الوجود. (٣٧٧).

البصيرُ بالتجارةِ لا ينقلُ إلا ما تعمُّ الحاجةُ إليه

التاجرُ البصيرُ بالتجارة، لا ينقُلُ من السِّلَعِ إلا ما تعُمُّ الحاجَةُ إليه، من الغنيِّ والفقيرِ والسلطانِ والسُّوقَةِ؛ إن في ذلك نَفَاقُ سلعَتِه.

وأما إذا اختصَّ نقلُهُ بما يحتاجَ إليه البعضُ فقط، فقد يتعذَّرُ نَفَاقُ سلعته حينئذ بأعوازِ الشراءِ من ذلك البعضِ، لعارضٍ من العوارِضِ؛ فتكسُدُ سوقُهُ وتفسُدُ أربَاحُهُ. (٣٣٧)

البصيرُ بالتجارةِ يقْصدُ الوسَطَ من كُلِّ صِنْفٍ

إذا نقلَ السِّلْعَةَ المُحْتَاجَ إليها فإنَّما ينقُلُ الوسَطَ من صنفها؛ فإنَّ الغالي من كُلِّ صنفٍ من السِّلَعِ إنَّما يختصُّ به أهْلُ الثروة وحاشيةُ الدولة، وهم الأقلُّ، وإنما يكونُ الناسُ أسْوَةً إلى الوسَطِ من كُلِّ صِنْفٍ. ويتحرَّ ذلك جَهْدَهُ، ففيه نَفَاقُ سلعته أو كسادُها. (٣٧٧)

نقلُ السِّلَعِ من البلدِ البعيدةِ

السِّلَعُ المنقولَةُ تكونُ قليلةً معوزةً لبُعْدِ مكانها أو شدَّةِ الغَرَرِ في طريقها، فيقلُّ حاملُوها ويَعِزُّ وجودُها، وإذا قلَّتْ وعزَّتْ غَلَتْ أثمانُها. (٣٧٧).

١٠٩- العربُ أبعدُ الناسِ عن الصنائعِ

والسببُ في ذلك أنَّهم أعْرَقُ في البَدْوِ وأبعدُ عن العُمرانِ الحَضَريِّ وما يدعو إليه من الصنائعِ وغيرها. والعَجَمُ من أهلِ المشرقِ وأُمَمِ النصرانيَةِ عُدْوَةَ البَحرِ الروميِّ

أقومُ الناسَ عليها، لأنهم أعْرَقُ في العمران الحفريِّ وأبعدُ عن البَدْوِ وعمرانه، حتَّى إنَّ الإبلَ التي أعانت العربَ على التوحُّشِ في القَفْرِ والإعراقِ في البَدو مفقودةٌ لديهم بالجُمْلَة ومفقودةٌ مراعيها والرمالُ المهيِّئةُ لنتاجها. ولهذا نَجدُ أوطانَ العربِ وما ملكُوْهُ في الإسلامِ قليلَ الصنائعِ بالجملةِ، حتى تُجْلَبَ إليهم من قُطْرٍ آخَرَ.

وانظرْ بلادَ العَجَمِ من الصِّيد والهِنْد وأرْضِ التُّرْكِ وأُمَمِ النصرانيَّة كيف استكثرت فيهم الصنائعُ واستجلبها الأمَمُ من عندهم. (٣٨٤)

من أجادَ صناعةً وبَرَعَ فيها قلَّ أن يُبْدِعَ في غيْرِها

من حَصَلَ على ملكَة علْمٍ من العلومِ وأجادَها في الغاية، فَقَلَّ أن يُجيْدَ علمًا آخرَ على نسبته، بل يكون مُقَصِّرًا قسه إن طبَّهُ، إلا في الأقلِّ النادرِ من الأحوالِ. (٣٨٥).

عاقبةُ إدخال الطعامِ على الطعام

إدخالُ الطعامِ إلى المعدة قَبْلَ أن تستوفيَ طَبْخَ الأوَّل، فيشتغلُ به الحارُّ الغريزيُّ ويتركُ الأوَّلَ بحاله. أو يتوزَّعُ فيقصرُ عن تمامِ الطبخ والنَّضْجِ. وتُرسلُهُ المعَدةُ كذلك إلى الكَبد، فلا تقوى حرارةُ الكبد -أيضًا- على إنضاجه، وربَّما بَقي في الكبد من الغذاء الأوَّل فضلةٌ غيرُ ناضجة وتُرسلُ الكبدُ جميعَ ذلك إلى العروق غَيْرَ ناضجٍ كما هو. فإذا أخَذَ البدنُ حاجتَهُ الملائمةَ أرسلَهُ مع الفَضَلات الأُخرى من العَرَقِ والدَّمْعِ واللُّعاب إن اقتدَرَ على ذلك. وربَّما يعجزُ عن الكثير منه، فيبقى في العروق والكبد والمعدة، وتتزايدُ مع الأيام.

وكلُّ ذي رطوبةٍ من الممتزجات إذا لم يأخُذْهُ الطبخُ والنْضجَ يعفَنُ، فيتعفَّنُ ذلك

الغذاءَ غيرُ الناضج وهو المسمى بالخِلْط. وكلّ متعفّنٍ ففيه حرارةٌ غريبةٌ، وتلك هي المسمَّاةَ في بدنِ الإنسان بالحُمَّى.

واختبرْ ذلك بالطعام إذا تَرِكَ حتَّى يتعفَّنَ وفي الزِّبلِ إذا تعفَّنَ -أيضًا- كيف تبعثُ فيه الحرارة وتأخذُ مأخذَها. (٣٩٦)

حاجةُ أهلِ المُدُنِ للطِّبِّ خلافًا للبَدْوِ

الأمراضُ في أهل الأمصارِ أكثرُ، لخصبِ عيشهم، وكثرة مآكلهم، وقلّة اقتصارهم على نوع واحد من الأغذية وعَدَم توقيتهم لتناوُلها. كثيراً ما يخلطونَ بالأغذيَة من التوابلِ والبقولِ والفواكه رَطبًا ويابسًا في سبيلِ العلاجِ بالطَّبْخ، ولا يقتصرونَ في ذلك على نوعٍ أو أنواعٍ، فربما عدَّدْنا في اليومِ الواحدِ من ألوان الطبخ أربعين نوعًا من النبات والحيوان، فيصيرُ للغذاءِ مزاجٌ غريبٌ، وربما يكونُ غريبًا عن ملاءَمة البَدَنِ وأجوائه.

ثم إن الأهوية في الأمصار تفسُدَ بمخالطة الأبخرة العَفِنَة من كَثْرَة الفَضَلات. والأهوية.. والأهويةُ منشّطَةٌ للأرواحِ ومقويَّةٌ بنساطها لأثرِ الحارِ الغريزيِّ في الهَضْم. ثُمَّ الرياضَةُ مفقودَةٌ لأهلِ الأمصار إذ هم في الغالب وادعونَ ساكنونَ، لا تأخذُ منهم الرياضةُ شيئًا، ولا تؤثِّرُ فيهم أثرًا؛ فكانَ وقوعُ الأمراضِ كثيراً في المدن والأمصارِ، وعلى قدَرِ وقوعه كانت حاجتُهُمُ إلى هذه الصِّنَاعَة.

وأمَّا أهلُ البَدو فمأكولُهُم قليلٌ في الغالب، والجوعُ أغلبُ عليهم لقلَّة الحبوب، حتى صار ذلك لهم عادةً. وربُّما يُظَنُّ أنها جبلَّةٌ لاستمرارها ثُمَّ الأُدمُ قليلةٌ لديهم أو مفقودَةٌ بالجملة وعلاجُ الطبخ بالتوابلِ والفواكه إنَّما يدعو إليه تَرَفَ الحضارَة الذين هم بمعزلٍ عنه؛ فيتناولون أغذيَتَهُمْ بسيطةً بعيدةً عمَّا يخالطُها ويقرِّبُ مزاجَها من

مُلاءَمةَ البدن، وأمّا أهويتُهم فقليلةُ العفَن، لقلّة الرطوبات، والعفونات، إن كانوا آهلين، أو لاختلافَ الأهويَة إن كانوا ظواعنَ. ثم إنَّ الرياضةَ موجودةٌ فيهم من كثْرَة الحركة في ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات لمهنَة أنفسهم في حاجاتهم فيحسُنُ بذلك كلِّه الهَضْمُ ويجودُ ويُفْقَدُ إدخالُ الطعامِ على الطعام فتكونُ أمزجتُهُم أصلحَ وابعدَ عن الأمراضِ فتقلُّ حاجتُهم إلى الطبِّ. (٣٩٦-٣٩٧).

الكتابةُ تُكْسِبُ صاحبَها عقلاً وفِطْنَةً

الكتابةُ انتقالٌ من الحروف الخطيَّة إلى الكلَمة اللفظيَّة في الخيالِ ومن الكلمة اللفظيَّة في الخيال إلى المعاني التي في النَفس؛ فهو ينتقل أبدًا من دليل إلى دليل، ما دامَ ملتبسًا بالكتابةَ، وتتعوَّدُ النفسُ ذلك دائمًا، فيحصلُ لها ملكةُ الانتقال من الأدلَّة إلى المدلولات، وهو معنى النَّظَر العقليِّ الذي يُكسِبُ العلومَ المجهولَةَ فتكسِبُ بذلك ملكةً من التعقُّل تكونُ زيادةَ عقلٍ.

ويحصلُ به قُوَّةُ فطنةٍ وكَيْسٍ في الأُمور، لما تعوَّدَهُ من ذلك الانتقال.

ولذلك قال كسْرى في كتابه لما رآهم بتلكَ الفطْنَة والكَيْس: «ديوَانُهُ» أي «شياطينُ وجنونٌ» وذلك أصلُ اشتقاقِ الديوانِ لأهلِ الكتابَة». (٤١٠-٤١١).

الحِذْقُ في العلْم

الحذقُ في العلمِ والتفنّنَ فيه والاستيلاءُ عليه، إنما هو بحصول مَلَكَة في الإحاطة بمبادئه، وقواعده، والوقوف على مسائله، واستنباط فروعه من أصوله، وما لم تحصُلْ هذه الملكَةُ لم يكن الحذْقُ في هذا الفنِّ المتناوَل حاصلاً.

وهذه الملكةُ هي في غير الفَهْمِ والوَعْي، لأنَا نجدُ فَهْمَ المسألَة الواحدة من الفَنِّ

الواحد ووعيها، مشتركًا بين من شدا في ذلك الفنِّ، وبين من هو مبتدئٌ فيه، وبين العاليِّ الذي لم يَعْرِفْ علمًا، وبين العالمِ النَّحرير، ، والملكةُ إنَّما هي للعالمِ أو الشادي في الفُنُونِ دونَ من سواهُما فدلَّ على أنَ هذه المَلَكَةَ غيرُ الفَهْمِ والوَعْيِ. (٤١٣).

التعليمُ والصنائعُ تزيدُ الإنسانَ ذكاءً

لما امتلأ الحضريُّ من الصنائعِ وملكاتها وحَسُنَ تعليمُها ظَنَّ كُلَّ من قصَّرَ عن تلك الملكات أنها لكمال في عقله، وأن نُفُوسَ أهلِ البَدْوِ مقاصرةٌ بفطرتها وجبلَّتها عن فطرته، وليسَ كذلك فإنَّا نجدُ في أهلِ البدو من هو أعلى رتبة من الفَهْمِ والكمال في عقله وفطرته، وإنما الذي ظهر، على أهلِ الحَضَرِ من ذلك رونَقُ الصنائعِ والتعليم؛ فإنَّ لهما آثارًا ترجعُ إلى النفسِ كما قدَّمْناه، وكذا أهلُ المشرق لما كانوا فى التعليم والصنائع، أرسخ رُتبةً وأعلى قدمًا وكان أهل المغرب أقربُ إلى البداوَة، لما قدَّمناه في الفَضْلِ قبلِ هذا ظَنَّ المغفلون في باديء الرأي أنه لكمال في حقيقَة الإنسانيَّة اختُصُّوا به عن أهلِ المغرب[1] وليس ذلك بصحيحٍ فتفهَّمْهُ. واللهُ يزيدُ في الخلقِ ما يشاءُ وهو إلهُ السماوات والأرضِ. (٤١٦).

العلومُ إنَّما تَكْثُرُ حيثُ يَكْثُرُ العُمرانُ وتَعْظُمُ الحضارةُ

من تَشَوَّفَ بفطرته إلى العلمِ، ممَّنْ نشأ في التُرى والأمصارِ غير المتمدِّنة -فلا يجدْ فيها التعليمَ الذي هو صناعيٌّ، لفقدانِ الصنائعِ في أهلِ البدوِ كما قدمْناه ولابُدَّ له في الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرَة، شأنَ الصنائعِ في أهلِ البدو. واعتبرْ ما قرَّرناهُ بحالِ بغدادَ وقُرْطُبَةَ والقيروان والبَصْرَة والكوفة، لما كثُرَ عُمرانُها صدرَ الإسلامِ، واستوتْ فيها الحضارةُ، كيفَ زَخَرَتْ فيها بحارُ العِلْم، وتفنَّنوا في

(١) الشَّيْءُ بالشَّيْءِ يُذْكَرُ ذلك حالُ بَعْضِ المغَفلين من العربِ مع أهلِ الصنائعِ والاختراعاتِ من الغَرْبِ!

اصطلاحات التعليمِ وأصناف العُلومِ، واستنباط المسائلِ والفنون، حتَّى أرْبَوا على المتقدِّمين، وفاتوا المتأخِّرين. ولما تناقَصَ عُمرانَها وابذَعَرْ سكانَها، انطوى ذلك البساطُ بما عليه جمعةً، وفَقدَ العِلْمُ بها والتعليمُ، وانتقلَ إلى غيرها من أمصارِ الإسلام. (٤١٦-٤١٧).

الإنسانُ مدنيٌّ بالطَّبْعِ

لا يُمْكنُ حياةُ المنفرد من البَشَرِ، ولا يَتمُّ وجودُهُ إلا مع أبناء جنسه. وذلك لما هو عليه من العَجْزِ عن استكمالِ وجوده وحياته فهو محتاجٌ إلى المعاونة في جميعِ حاجاته أبدًا بطبْعه. (٤٥٠).

كثْرَةُ التآليفِ في العلمِ عائقٌ عن التحصيل

اعلم أنَّهُ مما أضرَّ بالناسِ في تحصيلِ العلم والوقوف على غاياته كثرةُ التآليف واختلافُ الاصطلاحات في التعليمِ، وتعدُّدُ طُرُقها، ثم مطالَبَةُ المتعلِّمِ والتلميذ باستحضارِ ذلك. وحينئذ يسلَّمُ لَه منصبُ التحصيل، فيحتاجُ المتعلِّمُ إلى حفظها كُلِّها أو أكثرها ومراعاة طُرُقها ولا يَفِي عُمْرُهُ بما كُتِبَ وصناعة واحدة إذا تجَرَّدَ لها. فيقعُ القصورُ ولابُدَّ دونَ رتبةِ التحصيل. (٥٤٧).

قَلَّ من يبلغُ الغايةَ في التأليف

لا يطمعُ أحدٌ في الغاية منه إلا في القليلِ النادر مثلَ ما وصلَ إلينا ونحنُ بالمغرب لهذا العَهد، من تآليف رجلٍ من أهلِ صناعة العربيَّة من أهلِ مصرَ يُعْرَفُ بابن هشامٍ، ظهرَ من كلامه فيها أنَّه استولى على غايةٍ من ملكة تلك الصنَّاعة لم تحصلُ إلا لسيبويهِ وابن جنِّيٍّ وأهل طبقتهما، لعظَمِ ملكته وما أحاط به من أصولِ ذلك الفَنِّ

وتفاريق وحُسْن تصرُّفه فيه. ودلَّ ذلك على أنَه الفَضْل ليس منحصراً في المتقدِّمين سيَّما مع ما قدَّمناه من كثرةِ الشواغبِ بتعددُ المذاهبِ والطُرْق والتآليف، ولكنَّ «فضلُ اللهِ يؤتيه من يشاءُ».

مقاصدُ التأليفِ

الناسُ حصروا مقاصدَ التأليفِ التي ينبغي اعتمادُها وإلغاءُ ما سواها فَعدُّها سبعةً:

أَوَّلُها: استنباطُ العلمِ بموضوعه وتقسيمِ أبوابه وفصوله وتتَّبعِ مسائله، أو استباط مسائلَ ومباحثَ تَعرضُ للعالمِ المحقِّق ويَحرصُ على إيصاله بغيره لتَعُمَّ المنفعَةُ به فيودعُ ذلك بالكتابِ في المصحف، لعلَّ المتأخِّر يظهرُ على تلك الفائدة كما وقعَ في الأصول في الفقه تكلَّمَ الشافعيُّ أوَّلاً في الأدلَّة الشرعيَّة اللفظيَّة ولخَّصَها، ثُمَّ جاءَ الحنفيَّةَ فاستنبطوا مسائِلَ القياسِ واستوعبوها، وانتفعَ بذلك مَنْ بعَدهم إلى الآنَ.

وثانيها: أن يَقفَ على كلامِ الأوَّلين وتآليفهم فَيَجدُها مستغلقةً على الإفهامِ ويفتح اللهُ له في فهمها فيحرِصَ على إبانَة ذلك لغيرِه- ممَّن عساهُ يَسْتَغْلقُ عليه، لتصلَ الفائدةُ لمستحقِّها. وهذه طريقةُ البيانِ لكتبِ المعقولِ والمنقولِ وهو فصلٌ شريفٌ.

وثالثُها: أن يَعثُرَ المتأخِّرُ على غَلَط أو خطإٍ في كلامِ المتقدِّمين ممَّنْ اشتُهرَ خفقٌ وبعُدَ في الإفادَة صيتُهُ، ويستوثق في ذلك بالبرهانِ الواضحِ الذي لا مَدْخَلَ للشَّكِّ فيه، فيَحْرِصَ على إيصالِ ذلك لَمنْ بعَدهُ إذ قد تعذَّرَ مَحْوُهُ ونزعُهُ بانتشارِ التأليف في الآفاقِ والأعْصارِ وشُهْرَةِ المؤلِّف، ووثوقِ الناسِ بمعارفه فيودِعُ ذلك في الكتابِ ليقفَ على بيانِ ذلك.

ورابعُها: أن يكونَ الفَنُّ الواحدُ قد نَقُصَتْ منه مسائلُ أو فصولٌ بحَسَبِ انقسامِ موضوعِه فيقصُدُ المطَّلِعُ على ذلك أن يتمِّمَ ما نَقَصَ من تلك المسائلِ ليُكْمِلَ الفنَّ بكمالِ مسائله وفصوله، ولا يَبقى للنَّقْصِ فيه مَجَالٌ.

وخامسُها: أن تكُونَ مسائلُ العلْمِ قد وقعَتْ غيرَ مرتَّبَة في أبوابها ولا منتظمة؛ فيَقْصُدُ المطلعُ على ذلك أن يرتِّبَها ويُهَذِّبَها ويجعلَ كلَّ مسألة في بابها كما وقعَ في «المدَّونَة» في رواية سحْنونَ عن ابنِ القاسمِ؛ وفي «العتبيَّةَ» من رواية العُتْبيِّ عَن أصحابِ مالكَ فإن مسائلَ كثيرةً من أبوابِ الفقْه منها قد وقعت في غيرِ بابها فهذَّبَ ابنُ أبي زيد «المدونَّةَ» وبقيَّةُ «العُتْبَيَّةَ» غَيْر مُهذَّبَة فنجدُ في كلِّ بابٍ مسائلَ من غيره واستغنوا بالمدوَّنَة ومَا ابن أبي زيدٍ فيها والبرادعيٌّ من بعده.

وسادسُها: أن يكونَ العلم مفرقةً في أبوابها من علومٍ أخرى فيَتَنَبَّهَ بعضُ الفُضَلاء إلى موضوعِ ذلك الفنِّ وجميع مسائله، فيفعلَ ذلك ويظهرَ به فَنٌّ ينظمُهُ في جملة العلومِ التي ينْتَحلُها البشرُ بأفكارِهم كما وقعَ في علمِ البيان فإن عبدَ القاهرِ الجرجانيَّ وأبا يوسُفَ السَّكاكيَّ وجدا مسائلَهُ مستقريةً في كتبِ النحوِ وقد جمَعَ منها الجاحظُ في كتابِ «البيانِ والتَّبيْن» مسائلَ كثيرة، تنبَّهَ الناسُ فيها لموضوعِ ذلك العلمِ وانفراده عن سائرِ العلومِ؛ فكُتبَتْ في ذلك تآليفُهُمُ المشهورَةُ، وصارت أصولاً لفنِّ البيان، ولقَّنَها المتأخِّرون فأربَوا فيها على كُلِّ متقدِّمٍ.

وسابعُها: أن يكونَ الشيءُ من التأليف التي هي أُمهاتٌ للفنون مطوَّلاً مُسْهَبًا فيقصُدَ بالتأليف تلخيصَ ذلك بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرِّر إن وقَعَ مع الحذر من حذف الضروريِّ لئلا يُخلَّ بمقصد المؤلِّف الأوَّل فهذا جماعُ المقاصد التي ينبغي اعتمادُها بالتأليفِ ومراعاتُها، وما سوى ذلك فَفعلٌ غَيْرُ مُحتاجٍ إليه. (٥٤٩-٥٥٠).

كثرة الاختصارات المؤلَّفة في العلوم مُخلَّة بالتَّعليم

ذهبَ كثيرٌ من المتأخِّرين إلى اختصار الطُّرُق والأنحاء في العلوم، يولَعون بها ويُدوِّنون منها برنامجًا مختصرًا في كلِّ علمٍ يشتمِلُ على حصر مسائله وأدلَّتها باختصار في الألفاظ وحشو القليلِ منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفنِّ. فصار ذلك مخلاً بالبلاغة وعسيرًا على الفَهْمِ وربما عَمَدوا إلى الكتب الأمَّهات المطوَّلة في الفُنون للتفسير والبيان؛ فاختصروها تقريبًا للحفظ، كما فعلَه ابنُ الحاجبِ في الفقْه «وأُصول الفقْه» وابنُ مالك في العربيَّة والخونجيُّ في «المَنْطق» وأمثالُهم وهو فسادٌ في التَعليمِ وفيه إخلالٌ بالتحصيلِ، وذلك لأنَّ فيه تخليطًا على المبتدِئ بإلقاء الغايات من العلمِ عليه، وهو لم يستَعدَّ لقَبوله بَعْدُ. وهو من سوءِ التعليم كما سيأتي، ثم فيه مع ذلك شغلٌ كبيرٌ على المتعلِّم بتتبُّع ألفاظَ الاختصارِ العويصَة للفَهْمِ بتزاحم المعاني عليها وصُعُوبَة استخراجِ المسائل من بينها؛ لأن ألفاظَ المختصراتِ نجدُها لأجلِ ذلك صعبةً عويصةً فينقطعُ في مَهْمِها حظٌّ صالحٌ من الوقت، ثم بعدَ ذلك كُلِّه فالملكَةُ الحاصلَةُ من التعليم في تلك المختصرات إذا تَمَّ على سداده ولم تَعْقُبْهُ آفةٌ؛ فهي ملكَةٌ قاصرَةٌ عن الملكات لتي تحصُلُ من الموضوعات البسيطة المطَوَّلة لكثرة ما يقعُ في تلكَ من التَّكْرارِ والإحالة المُفيدَيْن لحصولِ الملكَة التامَّة». (٥٥١).

التَّدَرُّج في العلم

اعلمْ أنَّ تلقينَ العلومِ للمتعلمين إنما يكونُ مُفيدًا إذا كان على التَّدْريجِ، شيئًا فشيئًا وقليلاً قليلاً يُلقى عليه أوَّلاً مسائلُ من كُلِّ باب، من الفَنِّ هي أُصول ذلك الباب ويُقرَّبُ له في شرحه على سبيلِ الإجمال ويُراعى في ذلك قوَّةُ عقله لقبول ما يَرِدُ عليه، حتَّى ينتهيَ إلى آخر الفنِّ وعند ذلك يحصُلُ له ملكةٌ في ذلك العلمِ إلا أنها جُزئيَّةٌ وضعيفةٌ وغايتُها أنها هيَّأتْهُ لفَهمِ الفنِّ وتحصيلِ مسائله.

ثم يرجعُ به إلى الفنِّ ثانيةً، فيرفعُهُ في التلقين عن تلك الرُّتْبَة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرحِ والبيان، ويخرُجُ عن الإجمال ويذكُرُ له ما هناكَ من الخلاف ووَجْهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفنِّ فتجُودُ ملكتُهُ ثم يرجعُ به وقد شدا فلا يتركُ عويصًا ولا مُبْهمًا ولا مُنْغلقًا إلا وضَّحَهُ وفتحَ مُقْفَلهُ فيخصُصُ من الفَنِّ وقد استولى على ملكته. هذا وجهُ التعليم المُفيد وهو كما رأيتَ إنما يحصلُ في ثلاث تكرارات وقد يحصُلُ للبَعْضِ في أقلَّ من ذلك بحَسْبِ ما يخلُقُ له ويتيسَّرُ عليه. (٥٥١-٥٥٢)

لا تخلطْ تعليمكَ بغَيْرِهِ ممَّا هو غريبٌ عنه

لا ينبغي للمعلِّم أن يزيدَ مُتَعَلِّمَهُ على فهمِ كتابه الذي أكبَّ على التعليم منهُ بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئًا كان أو منتهيًا، ولا يخلطَ مسائلَ الكتابِ بغيرها حتَّى يَعيَهُ من أوَّله إلى آخره ويحصِّلَ أغراضَهُ ويستوليَ منه على ملكة بها ينفُذُ في غَيْره؛ لأنَّ المتعلِّمَ إذا حصَّلَ ملكةً ما في علم من العلومِ استعدَّ بها لقبولِ ما بقيَ، وحَصَلَ له نشاطٌ في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوقهَ، حتَّى يستوليَ على غايات العلم، وإذا خُلطَ عليه الأمرُ عَجزَ عن الفَهْمِ وأدركَهُ الكلالُ وانطمَسَ فكرُهُ ويئسَ من التَحصيلِ، وهجرَ العلمَ والتعليمَ. (٥٥٢).

لا تجعلْ تعليمكَ مفرَّقًا على أوقاتٍ متباعدةٍ

ينبغي لك أن لا تطوِّلَ على المتعلمِ في الفنِّ الواحد (والكتاب الواحد) بتقطيعِ المجالسِ وتفريق ما بينَها؛ لأنَّه ذريعَةٌ إلى النسيان وانقطاع مسائلَ الفَنِّ بعضها من بعض، فيعسُرُ حصولُ الملكة بتفريقها. وإذا كانت أوائلُ العلمِ وأواخرُهُ حاضرَةً عند الفكرةِ مجانبَةً للنسيان كانت الملكةُ أيسرَ حصولاً وأحكمَ ارتباطًا وأقربَ صبْغَةً؛ لأنَّ الملكاتِ إنما تحصُلُ بتتابعِ الفعلِ وتكراره. (٥٥٢- ٥٥٣).

لا تنتقل بطلابك من فن إلى آخر قبل إحكام الأول ولا تخلط عليهم علمين في وقت واحد

من المذاهب الجميلة والطُّرُق الواجبة في التعليم أن لا يُخلَطَ على المتعلّم علمان معًا؛ فإنّه حينئذ قلّ أن يظفر بواحد منهما، لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كلّ واحد منهما إلى تفهّم الآخر، فيستغلقان معًا ويُستصعبان، ويعودُ منهما بالخَيبة، وإذا تفرّغ الفكرُ لتعليم ما هو بسبيله مقتصرًا عليه، فربّما كان ذلك أجدَرَ بتحصيله. (٥٥٣).

تعليمُ الأطفال كتاب الله

اعلمْ أنّ تعليمَ الولدان للقرآن شعارٌ من شعائر الدِّين، أخَذَ به أهلُ المِلّة ودَرَجُوا عليه في جميع أمصارهم لما يَسْبِقُ فيه إلى القلوب من رسُوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض مُتون الأحاديث وصار القرآنُ أصْلَ التعليم الذي ينبني عليه ما يحصُلُ بعدهُ من الملكات. وسببُ ذلك أنّ تعليمَ الصِّغَرِ أشدُّ رسوخًا وهو أصلٌ لما بعدهُ؛ لأنّ السابقَ الأوّلَ للقلوب كالأساس للملكات، وعلى حَسَب الأساس وأساليبه يكونُ حالُ ما ينبني عليه. (٥٥٦).

لا تُقدّمْ على تعليم القُرآن شيئًا

اختلفتْ طرقُهُم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما يَنشأُ عن ذلك التعليم من الملكات. فأمّا أهلُ المغرب فمذهبُهُمْ في الولدان الاقتصارُ على تعليم القرآن فقطْ، وأخذُهُمْ أثناءَ المدارسة بالرّسْم ومسائله واختلاف حملَة القرآن فيه؛ لا يخلطُون ذلك بسواهُ في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعْرٍ ولا من كلامِ العرب، إلى أن يَحذِقَ فيه أو ينْقَطِعَ دونهُ، فيكونُ انقطاعهُ في

الغالب انقطاعهُ عن العلْمِ بالجُمْلَة، وهذا مذهبُ أهلِ الأمصار بالمغربِ ومن تبعَهُم من قُرى البربَر أُمَمِ المغرب، في ولدانِهم إلى أن يجاوزُوا واحَدَّ البُلوغ إلى الشبيبَة، وكذا في الكبيرِ إذا راجَعَ حفْظَ القرآن بعد طائفة من عُمره، فَهم لذا أقومُ على رسمِ القرآن وحفظه من سواهم. وأمَّا أهْلُ الأندلُس فَمذهبُهُم تعليمُ القرآن والكتاب من حيثُ هو، وهذا هو الذي يراعونَهُ في التعليمِ إلا أنَّهُ لما كان القرآن أصلَ ذل وأُسَّهُ ومنبعَ الدينِ والعُلومِ جعلوهُ أصلاً في التعليم. (٥٥٦).

السرُّ في تقديم القرآنِ قَبْلَ غيرِهِ من العلومِ

تقديمُ دراسة القرآن إيثاراً للتَّبُّرك والثواب وخشيَةً ما يعرضُ للولد في جنون الصَّبيِّ من الآفات والقواطعِ عن العَلَمِ؛ فيفوتُهُ القرآنُ، لأنه ما دامَ في الحَجْر منقادٌ للحكمِ، فإذا تجاوزَ البلوغَ وانحلَّ من ربقَة القَهْر، فَرُبَّما عَصَفَتْ به رياحُ الشَّبيبَة، فألقَتْهُ بساحلِ البطَالَة؛ فيَغْتَنِمُونَ في زمانِ الحَجْرِ وربْقَة الحكْمِ تحصيلَ القرآن له لئلاَّ يذهبَ خلواً منه. (٥٥٨).

الشدَّةُ على المتعلِّمين مُضِرَّةٌ بهم

وذلك أنَّ إرهافَ الحدِّ في التعليمِ مُضِرٌ بالمتعلِّمِ، سيمَّا في أصاغرِ الوُلْدِ؛ لأنَّهُ من سوءِ الملكَة.

ومن كان مرباهُ من العسف والقهْر من المتعلِّمينَ أو المماليك أو الخَدَم، سطابه القهرُ وضيَّقَ عن النفسِ انبساطَها، وذهبَ بنشاطها ودعاهُ إلى الكسَل وحُملَ على الكذب والخُبْث، وهو التظاهرُ بغير ما في ضَميره، خوفًا من انبساط الأيدي بالقَهْر عليه، وعلَّمَهُ المكْرَ والخديعَةَ لذلك وصارت له هذه عادةً وخُلُقًا، وفسدت معاني الإنسانيةِ التي له من حيثُ الاجتماعُ والتمرُّنُ، وهي الحميَّة

والمدافعةُ عن نَفْسه أو منزله وصار عيالاً على غيره في ذلك، بَلْ كَسلَتْ النفسُ عن اكتساب الفضائلِ والخُلُقِ الجميلِ، فانقبضتْ عن غايتها ومدى إنسانيَّتها، فارتكسَ وعاد إلى أسفلِ السَّافلين. وهذا وقَعَ لكُلِّ أمَّة وقعت في قبضَة القهر ونال منها العَسفُ، واعتبرهُ في كُلِّ مَنْ يُملَكُ أمرُهُ عليه، ولا تكونُ المَلَكَةُ الكافلَةُ رخيصةً به. (٥٥٨-٥٥٩).

صَوْنُ النفوسِ عن مذلَّةِ التأديب

قال محمدُ بنُ أبي زيد في كتابه «حكمُ المعلِّمين والمتعلِّمين»: «لا ينبغي لمؤدِّب الصبيانِ أن يزيدَ في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئًا» ومن كلامِ عُمَرَ -رضيَ اللهُ عنه-: «من لم يؤدِّبْهُ الشَّرعُ لا أدَّبَهُ اللهُ» حرصًا على صَوْن النفوس عن مذلَّة التأديبِ، وعِلْمًا بأنَّ المقدارَ الذي عيَّنَهُ الشَّرعُ لذلك أملكُ لَهُ؛ فإنَّهُ أعْلَمُ بمصلَحَته. (٥٥٩)

الرحلةُ في طَلَبِ العُلوم ولقاءِ الشيخَةِ مَزيدُ كَمالٍ في التعليم

والسَّبَبُ في ذلكَ أنَّ البَشَرَ يأخذونَ معارفَهُم وأخلاقَهم وما يَنْتَحلونَ به من المذاهبِ والفضائلِ تارةً علمًا وتعليمًا وإلقاءً؛ وتارةً محاكاةً وتلقينًا بالمباشرة إلاَّ أن حصولَ الملكات عن المباشرةِ والتلقينِ أشدُّ استحكامًا وأقوى رسوخًا.

فعلى قدرِ كَثْرَة الشيوخِ يكونُ حصولُ المَلَكات ورسوخُها، والاصطلاحاتُ -أيضًا- في تعليمِ العلومِ مخلِّطةٌ على المتعَلِّمِ حتى لقد يَظُنُّ كثيرٌ منهم أنها جُزْءٌ من العلمِ ولا يدفَعُ عنه ذلك إلا مباشرتُهُ لاختلافِ الطُّرقِ فيها من المعَلِّمينَ فلقاءُ أهلِ العلمِ وتعدُّدُ

المشايخ، يَفيْدُهُ تميُّزُ الاصطلاحات بما يراهُ من اختلاف طُرُقهم فيها؛ فيجرِّدُ العِلْمَ عنها ويعلمُ أنها أنحاءُ تعليمٍ وطرُقُ توصيلٍ. وتُنْهِضُ قُواهُ إلى الرُّسوخِ والاستحكامِ في المكانِ ويصحِّحُ معارِفَهُ ويميِّزُهَا عن سواها مع تقويَةِ ملكته بالمباشرة والتلقين وكَثْرَتِهِما من المَشيخَةِ عند تعدُّدِهم وتنوُّعِهم. (٥٥٩-٥٦٠).

قد يكونُ العاميُّ أصلَحَ للسياسَةِ

العلماءُ لأجلِ ما تعوَّدوهُ من تعميمِ الأحكامِ وقياسِ الأمورِ بعضِها على بعضٍ إذا نظروا في السياسَةِ أفْرغُوا ذلك في قالَبِ أنظارهم نوعَ استدلالاتهم؛ فيقعون في الغَلَط كثيراً ولا يؤمَنُ عليهم، ويلحقُ بهم أهلُ الذكاء والكَيْسِ من أهلِ العُمران؛ لأنهم ينزعُون بثقوب أذهانهم، إلى مثل شأن الفقهاء، من الغَوْصِ في المعاني والقياس والمحاكاة، فيقعُون في الغَلَط. والعاميُّ السليمُ الطَّبْعِ المتوسِّطُ الكَيْس، لقصور فكْره ذلك وعدمِ اعتياده إياهُ يقتصرُ لكلِّ مادة على حُكْميها، ، وفي كُلِّ صنف من الأحوالِ والأشخاصِ على ما اختُصَّ به، ولا يُعَدِّي الحُكْمَ بقياسٍ ولا تعميمٍ، ولا يُفارقُ في أكثرِ نظرِهِ الموادَّ المحسوسَةَ ولا يُجاوزُها في ذهنه، كالسابحِ لا يفارقُ البرَّ عند المَوْجِ.

فــلا توغَلنَّ إذا مــا ســبــحْتَ فــإنَّ الســلامَــةَ في الســاحلِ

فيكونُ مأمونًا عَن النظر في سياسته، مستقيمَ النَّظَرِ في معاملة أبناء جنسه فيحسُنُ معاشُهُ وتندفعُ آفاقُهُ ومضارُّهُ باستقامَةِ نَظَرِه. (٥٦٠-٥٦١).

حمَلَةُ العلمِ في الإسلامِ أكثرُهم عجَمٌ

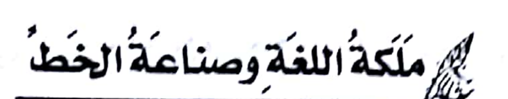
من الغريب الواقعِ أنَّ حملَةَ العلمِ في الملَّةِ الإسلاميَّةِ أكثرهُمُ العَجَمُ، (وليسَ في العربِ حملةُ علْمٍ)، لا في العُلومِ الشرعيَّةِ، ولا في العلومِ العقليَّةِ إلا في القليلِ

النادرِ وإن كان منهم العربيُّ في نسبه، فهو أعجميٌّ في لغته ومُرَبَّاهُ ومشيخته، مع أن المِلَّةَ عربيَّةٌ، وصاحبَ شريعتِها عربيٌّ. والسَّبَبُ في ذلك أنَّ المِلَّةَ في أوَّلها لم يكُنْ فيها علمٌ ولا صِنَاعَةٌ، لمقتضى أحوالِ السذاجَةِ والبداوَةِ، وإنما أحكامُ الشريعةِ التي هي أوامرُ الله ونواهيه، كان الرجالُ ينقلونَها في صُدورهم، وقد عرفُوا مأخذَها من الكتابِ والسُّنَّةِ بما تلقَّوهُ من صاحبِ الشَّرْعِ وأصحابه. والقومُ يومئذ عرَبٌ لم يعرفوا أمرَ التعليمِ والتآليفِ والتدوينِ، ولا دُفعوا إليه ولا دَعَتْهُمْ إليه حاجةٌ. وجرى الأمرُ على ذلك زمنَ الصحابَةِ والتابعين وكانوا يُسَمُّونَ المختصِّين بحملِ ذلك ونَقْله «القُرَّاءَ» أي الذين يقرأونَ الكتابَ وليسوا أُمِّيينَ؛ لأنَّ الأُميَّةَ يومئذ صفةٌ عامَةٌ في الصحابةِ بما كانوا عربًا. فقيلَ لحملَةِ القرآن يومئذ قرَّاءٌ، إشارةً إلى هذا فهم قُرَّاءٌ لكتابِ الله والسُّنة المأثورة عن الله، لأنَّهم لم يعرفوا الأحكامَ الشرعيَّةَ إلا منه، ومن الحديثِ الذي هو في غالبِ موارده تفسيرٌ له وشَرْحٌ. (٥٦١).

العُجْمَةُ إذا سبقَتْ إلى اللِّسَانَ قَصَّرَتْ بصاحبِها في تحـصيلِ العلومِ عن أهـلِ اللِّسـانِ العربيِّ

والسرُّ في ذلك: أنَّ مباحثَ العُلومِ كُلِّها إنما هي في المعاني الذهنيَّة والخياليَّة، من بين العُلُومِ الشرعيَّة، التي أكثرُ مباحثِها في الألفاظ وموادِّها من الأحكامِ المتلقَّاة من الكتابِ والسُّنَّة ولغاتِها المؤديةِ لها، وهي كُلُّها في الخَيال؛ وبين العلومِ العقليَّة، وهي في الذِّهْنِ.

واللغاتُ: إنما هي ترجمانٌ عمَّا في الضمائرِ من تلكَ المعاني يؤدِّيها بعضٌ إلى بعضٍ بالمشافَهَةِ في المناظَرَةِ والتعليمِ، وممارسةِ البحثِ بالعلومِ لتحصيلِ ملكتها بطولِ المرانِ على ذلك. (٥٦٣).



ملكةُ اللغةِ وصناعةُ الخطِّ

اللغةُ ملكةٌ في اللسان، وكذا الخَطُّ صناعةٌ ملكتُها في اليَد فإذا تقدَّمت في اللسان ملكةُ العُجْمَة، صار مقَصِّرًا في اللغة العربيَّة، لما قدَّمناه من أن الملكةَ إذا تقدَّمتَ في صناعة بمحلٍّ فقَلَّ أن يجيد صاحبُها ملكةً في صناعة أُخرى، وهو ظاهرٌ. وإذا كان مقصِّرًا في اللغة العربية، ودلالتها اللفظَيَّة والخطيَّة اعتَاصَ عليه فهمُ المعاني منها كما مَرَّ إلاَّ أن تكونَ ملكةُ العُجْمَة السابقَةُ لم تستحكَمْ عُجمتُهُمْ، فتكونُ اللغةُ العربيةُ كأنَّها السابقةُ لهم، ولا يكونُ عندهم تقصيرٌ في فَهْمِ المعاني من العربيَّة، وكذا - أيضًا- شأنُ من سَبَقَ له تعلُّمُ الخَطِّ الأعجميِّ قَبْلَ العربيِّ. (٥٦٤).

في علومِ اللِّسانِ العربيِّ

أَركانُهُ أربعَةٌ: وهى اللغَةُ، والنحوُ، والبيانُ، والأدَبُ، ومعرفتُها ضروريَّةٌ على أهلِ الشريعَة، إذ مأخذُ الأحكامِ الشرعيةِ كُلِّها من الكتاب والسُّنَّة وهي بلغة العَرب ونقلَتُها من الصحابة والتابعين عربٌ، وشرحُ مشكلاتِها من لغتِهم، فلابُدَّ من معرفةِ العلومِ المتعلِّقَةِ بهذا اللسانِ لمن أرادَ علمَ الشريعَة.

وتتفاوتُ في التأكيدِ بتفاوُت مراتبِها في التوفَيةِ بمقصودِ الكلاَمِ، حسْبَما يتبيَّنُ في الكلامِ عليها فنًا فنًا.

والتي يتحصَّلُ أن الأهَمَّ المقدَّمَ منها هو النحوُ، إذ به يتبيَّنُ أُصولُ المقاصد بالدلالَة فيُعَرفُ الفاعلُ من المفعولِ والمبتدأ من الخبرِ ولولاهُ لجُهِلَ أصْلُ الإفادَة. (٥٦٥)

أصولُ الأدبِ

سمِعْنا من شيوخِنا في مجالسِ التَّعْليمِ أنَّ أصولَ هذا الفَنِّ أربعةُ دواوينَ وهي:

- «أدبُ الكاتبِ» لابنِ قُتَيْبَةَ و«كتابُ الكاملِ» للمبرِّد، وكتابُ «البيان والتبيين» للجاحظ وكتابُ «النوادرِ» لأبي علي القاليِّ البغداديِّ وما سوى هذه الأربعة فتبعٌ لها وفروعٌ عنها. (٥٧٣).

ملَكَةُ اللُّغَةِ وكيفَ تَنْشأُ

الملكاتُ لا تحصلُ إلا بتكْرارِ الأفعال؛ لأنَّ الفعلَ يقعُ أولاً وتعددُ منه للذات صفَةٌ، ثم تتكرَّرُ فتكونُ حالاً. ومعنى الحال أنَّها صفةٌ غَيْرُ راسخَة ثم يزيدُ التكرارُ فتكونُ ملكةً أي صفةً راسخةً فالمتكلِّمُ من العربَ حين كانت ملكتُهُ اللّغةُ العربيةُ موجودةً فيهم يسمعُ كلامَ أهلِ جيله وأساليبَهُم في مخاطباتهمْ وكيفيَّة تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمعُ الصبيُّ استعمالَ المفردات في معانيها؛ فَيُلَقَّنُها أولاً يسمعُ التراكيبَ بعدَها فيلقَّنُها كذلك، ثم لا يزالُ سماعُهُم لذلك يتجدَّدُ في كُلِّ لحظَة ومن كُلِّ متكلِّمٍ واستعمالُهُ يتكرَّرُ إلى أن يصيرَ ذلك ملكةً وصفَةً راسخةً ويكونُ كأحدهم. هكذا تصيَّرَتْ الألسنُ واللغاتُ من جيلٍ إلى جيلٍ وتعلَّمَها العجمُ والأطفالُ. (٥٧٤).

أسبابُ العناية بالنَّحْوِ

القرآنُ منَزَّلٌ به والحديثُ النَّبَويُّ مقولٌ بلغَته وهما أصلا الدِّين والملَّة فخُشيَ تناسيهما وانفلاقُ الأفهامِ عنهما بفُقْدان اللسان الذي تنزَّلا به. فاحتيجَ إلى تدوينِ أحكامه ووضْعِ مقاييسه واستنباط قوانينه. وصار علمًا ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائلَ. سماهُ أهلُهُ بعلمِ النَّحْو وصناعَة العربيَّة فأصبح فنًا محفوظًا وعلمًا مكتوبًا وسُلَّمًا إلى فَهْمِ كتابِ الله وسُنَّة رسوله -صلى الله عليه وسلَّمَ- وافيًا. (٥٧٦).

اللغاتُ لما كانت ملكات كما مَرَّ كان تعلُّمَها ممكنًا شأنَ سائر الملكات ووجْهُ التعليمِ لمَنْ يبتغي هذه المَلَكةَ ويرومُ تحصيلَها أن يأخُذَ نَفْسَهُ يحْفظَ كلامهم القديمِ الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث، وكلا السَّلف ومخاطبةَ فُحُول العرب في أسجاعِهم وأشعارِهم وكلماتِ المولَّدين -أيضًا- في سائرِ فنونهم حتى يَتَنَزَّل لكثرةِ حفظه لكلامهم من المنظومِ والمنثور منزلَةَ من نشأ بينهم ولُقِّنَ العبارةَ عن المقاصدِ منهم، ثم يتصرفُ بعدَ ذلك في التعبير عمَّا في ضميرِه على حَسَبَ عباراتهم وتأليفَ كلماتهم، وما وعاهُ وما حفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم فتحقق له هذه المَلكةُ بعد الحفظ والاستعمال ويزدادُ بكثرتهما رُسوخًا وقوةً. (٥٧٨-٥٧٩)

ثمرةُ تعلُّم النَّحوِ هو التَّطْبيقُ حتى تصير ملكَةً ملازِمَةً للمتعلِّم

تجدُ كثيرًا من جهابذة النُّحاة والمَهرَة في صناعَة العربيَّة المحيطين علمًا بتلكَ القوانينِ إذا سُئِلَ في كتابة سطرينْ إلى أخيه أو ذي مودَّيَه أو شكوى ظُلامَة أو قَصْد من قصدوه أخطأ منها الصوابَ وأكثر من اللحنِ، ولم يُجْد تأليفَ الكلامِ لذلك، والعبارةَ عن المقصود فيه على أساليب اللسان العربيِّ، وكذا نجد كثيرًا ممَّنْ يحسنُ هذه الملكةَ ويجيدُ الفَنَّيْنِ المنظومَ، والمنثورَ وهو لا يُحْسنُ إعرابَ الفاعلِ من المفعول، ولا المرفوعَ من المجرور ولا شيئًا من قوانين صناعة العربيَّة فمنْ هنا يُعلُم أن تلكَ الملكةَ هي غيرُ صناعَة العربيَّة وأنها مستغنيةٌ عنها بالجملَة. (٥٨٠).

إذا تَعَلَّمتَ مسألةً من النحوِ فَحَنِّكْ بها لسانَكَ

أصبحتْ صناعةُ العربيَّة كأنَّها من جملة قوانينِ المنطق العقليَّة أو الجدل وبُعدَت عن مناحِي اللسانِ وملكيته وأفادَ ذلك حملَتَها في هذه الأمصارِ وآفاقِها البعدُ عن

الملكة بالكليَّة، وكأنَّهم لا ينظرون في كلامِ العربِ وما ذلك إلا لقد ولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه وغفلتهم عن المِران في ذلك للمتعلِّم، فهو أحسنُ ما تُفيدُهُ الملكةُ في اللسانِ وتلكَ القوانينُ إنما هي وسائلُ للتعليم؟ لكنَّهم أجروها على غيرِ ما قُصِدَ بها وأصاروها علمًا بحتًا وبعَدوا عن ثمرتها. وتعلَّمْ ما قررَّناه في هذا البابِ، أنَ حصولَ ملكة اللسانِ العربيِّ إنما هو بكثرة الحفْظ من كلامِ العربِ، حتى يَرْتسِمَ في خياله المنوالُ الذي نسجوا عليه تراكيبَهم فينسجُ هو عليه. ويتنْزلُ بذلك منزلَةَ من نشأ معَهم وخالطَ عباراتهم في كلامهم، حتى فَصُلَتْ له الملكةُ المستقرَّةُ في العبارةِ عن المقاصدِ على نحوِ كلامهم. (٥٨٠-٥٨١).

أسلوبُ الرسائلِ السلطانيَّةِ

المحمودُ في المخاطبة السلطانيَّة الرَسُّلَ، وهو إطلاقُ الكلام وإرسالُهُ من غيرِ تسجيعِ إلا في الأقَلِّ النادرِ، وحيثُ ترسلُهُ الملكةُ، إرسالاً من غير تكلُّف له، ثم إعطاءُ الكلامِ حقَّهُ في مطابقَتهِ لمقتضى الحالِ، فإنَّ المقامات مختلفَةٌ ولكلِّ مقام أُسْلوبٌ يخصُّهُ. (٥٨٦).

قَلَّ أن تَتَّفِقَ الإجادَةُ في فَنَّي المنظومِ والمنثورِ معًا

والسببُ في ذلك أنَّهُ كما بَيَّنَّاهُ ملكةٌ في اللِّسان فإذا تسبَّقَتْ إلى محلِّه ملكةٌ أُخرى، قَصَّرَتْ بالمَحلِّ عن تمامِ الملكة اللاحقة لأنَّ تمامَ الملكات وحصولَها للطبائعِ التي على الفطرَةِ الأولى أسهلُ وأيْسَرُ وإذا تقدَّمَتْها ملكةٌ أُخرى كانت منازعةً لها في المادَّة القابلة وعائقةً عن سرعة القبول، فوقعتَ المنافاةُ وتعذَّرَ التَّمامِ في الملكَة. وهذا موجودٌ في الملَكات الصناعيَّة على الإطلاقِ (٥٨٧).

أهميةُ الشعْرِ

اعلمْ أنَّ فنَّ الشعرِ من بين الكلامِ كان شريفًا عند العربِ؛ ولذلك جعلوه ديوانَ علومِهم وأخبارِهم وشاهدَ صوابهم وخطئهم، وأصلاً يَرجعون إليه في الكثيرِ من علومِهم وحكمِهم، وكانت ملكتُهُ مستحكمةٌ فيهم شأن ملكاتهم كلِّها. والملكاتُ اللسانيةُ كلُّها إنما تكتَسَبُ بالصناعةِ والارتياضِ في كلامِهم حتَّى يحْصُلَ شبَهٌ في تلْكَ الملكَة. (٥٨٨).

فَنُّ صناعةِ الشعْرِ

اعلمْ أن لعملِ الشِّعْرِ وإحكامِ صناعتِهِ شروطًا.

أوَّلُها: الحفظُ من جنسِه أي من جنسِ شعرِ العربِ حتَّى تنشأ في النفسِ ملكةٌ يُنْسِجُ على منوالها. ويُتَخَيَّرُ المحفوظُ من الحرِّ النقيِّ الكثيرِ الأساليبِ.

وهذا المحفوظُ المختارُ أقلُّ ما يكفي فيه شعرُ شاعرٍ من الفُحول الإسلاميِّينَ، مثلِ ابنِ أبي ربيعةَ وكُثَيِّرٍ وذي الرُّقَّة وجرير وأبي نُواس وحَبيب والبحتريِّ والرضيِّ وأبي فراسٍ وأكثرهُ شعرُ كتاب «الأغاني»؛ لأنه جمعَ شعرَ أهلِ الطبقَة الإسلاميَّةَ كُلِّها، والمختارَ من شعرِ الجاهليَّة ومَن كان خاليًا من المحفوظ فنظمُهُ قاصرٌ رديءٌ، ولا يعطيه الرونَقَ والحلاوَةَ إلا كثرَةُ المحفوظ. فمَنْ قَلَّ حفظُهُ أو عُدمَ لم يكُنْ له شعْرٌ، وإنما هو نَظْمٌ ساقطٌ. واجتنابُ الشِّعْرِ أولَى لمَنْ لم يكنْ له محفوظٌ.

ثم بعدَ الامتلاء من الحفْظ وشَحْذ القريحَة للنَّسْجِ على المنوال يُقْبلُ على النظم بالإكثارِ منه تستحكمُ ملكَتُهُ وترسَخُ وربَّما يقالُ إنَّ من شرطه نسيانَ ذلك المحفوظ لتُحْمَى رسومُهُ الحرفيَّةُ الظاهرَةُ إذ هي صادرةٌ عن استعمالِها بعَينِها فإذا نسيَها وقد

تكيَّفَتْ النَّفسُ بها، انتُقِشَ الأُسلوبُ فيها كأنَّهُ منوالٌ يأخذُ بالنَّسْجِ عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورةً ثم لابدَّ لَهُ من الخَلوَة واستجادَة المكانِ المنظور فيه من المياهِ والأزهارِ، وكذا من المسموعِ لاستنارَة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرورِ ثم مع هذا كلِّه فشرطُهُ أن يكونَ على جمامٍ ونشاطٍ فذلك أجمعُ له وأنشطُ للقريحة أن تأتيَ بمثلِ ذلك المنوالِ الذي في حفْظِه. (٥٩٢-٥٩٣).

أحْسَنُ الأوقاتِ لقَرْظِ الشِّعْرِ

قالوا: وخيرُ الأوقاتِ لذلك أوقاتُ البُكَرِ عندَ الهُبوبِ من النومِ وفراغِ المعَدة ونشاطِ الفكرِ، ومن هؤلاء الحجامِ. (٥٩٣).

البواعِثُ على قَرْظِ الشِّعْرِ

قالوا: إن من بواعثه العشْقَ والانتشاءَ ذَكَرَ ذلك ابنُ رشيد في كتاب «العُمْدَة» وهو الكتابُ الذي انفردَ بهذه الصناعَة وإعطاءِ حقِّها ولم يكْتُبْ أحدٌ قبلَهُ ولا بَعْدَهُ مثلَهُ (٥٩٣)

لا تُكْرِهْ نَفْسَكَ على قولِ الشِّعْرِ

قالوا: فإن استصعبَ عليه بَعْدَ هذا كلِّه فليتركْهُ إلى وقت آخَرَ، ولا يُكْرِهْ نفْسَهُ عليه. (٥٩٣).

نصائحُ لِمَنْ أرادُ قَرْظَ الشِّعْرِ

ليكُنْ بناءُ البيت على القافيَة من أوَّل صوغه ونسجه بعضَها، ويبني الكلامَ عليها إلى آخره؛ لأنَّه إن غَفلَ عن بناء البيت على القافيِّة صَعُبَ عليه وضعُها في محلِّها فربَّما تجيءُ نافرةً قلقَةً، وإذا سمَحَ الخاطرُ بالبيت ولم يناسبْ الذي عندَه فلْيَتركْهُ إلى موضعه الأليَق به؛ فإن كلَّ بيت مستقلٌ بنفسه، ولم تَبْعَهَ إلا المناسبَةُ فليتخيَّرْ فيها ما

يشاءُ، وليراجعْ شعرَهُ بعد الخلاصِ منه بالتنقيحِ والنَّقْدِ ولا يَضُنَّ به على التَّرْكِ إذا لم يبلُغ الإجادَةَ، فإن الإنسانَ مفتونٌ بشعرِه، إذ هو من بنات فكرِه واختراعُ قريحتِه، ولا يستَعْمِلْ فيه من الكلامِ إلا الأفصَحَ من التراكيبِ والخالصُ من الضروراتِ اللسانيَّةِ فليهجرْها؛ فإنها تَنْزِلُ بالكلامِ عن طبقَةِ البلاغَةَ وقد حظَرَ أئمة اللسان على المولَّد ارتكابَ الضرورَةِ، إذ هو في سعةٍ منها بالعدولِ عنها إلى الطريقَةِ المثلى من الملكَةِ. ويَجْتَنِبُ -أيضًا- المعقَّدَ من التراكيبِ جهدَهُ وإنما يقصدُ منها ما كانت معانيه تسابقُ ألفاظَهُ إلى الفَهْمِ وكذلك كثرةُ المعاني في البيتِ الواحدِ فإن فيه نوعَ تعقيدٍ على الفَهْمِ.

وإنما المختارُ منه ما كانت ألفاظُه طبقًا على معانيه أو أوفى منها. فإن كانت المعاني كثيرةً كان حشدًا، واستُعْمِلَ الذهنُ بالغَوصِ عليها، فمنَعَ الذوقَ عن استيفاءِ مدركِه من البلاغَةِ.

ولا يكونُ الشعْرُ سهلاً إلا إذا كانت معانيه تسابقُ ألفاظَهُ إلى الذهْنِ. ولهذا كان شيوخُنا -رحمهُم اللهُ- يعيبون شعرَ أبي بكرِ بنِ خَفَاجَةَ شاعرِ شَرْقِ الأندلُس، لكثرةِ معانيه وازدحامها في البيتِ الواحدِ، كما كانوا يَعيبون شعرَ المتَنَبِّي والمعرِّي بعدمِ النسجِ على الأساليبِ العربيَّةِ كما مرَّ، فكان شعرُهما كلامًا منظومًا نازلاً عن طبقةِ الشعرِ والحاكمُ بذلك هو الذَّوْقُ.

ولَيجْتَنِب الشاعرُ -أيضًا- الحوشيَّ من الألفاظِ والمقَعَّر وكذلك السوقيَّ المبتذَلَ بالتداوُلِ بالاستعمالِ، فإنه ينزلُ بالكلامِ عن طبقةِ البلاغَةِ، وكذلك المعَانيَ المبتذلةَ بالشهرةِ فإنَّ الكلام ينزلُ بها عن البلاغةِ -أيضًا- فيصيرُ مبتَذلاً ويقرُبُ من عدمِ الإفادَةِ كقولِهِم: النارُ حارةٌ والسماءُ فوقَنا.

وبمقدارِ ما يقرُبُ من طبقَةِ عدمِ الإفادة يبعدُ عن رتبة البلاغَةِ إذ هما طرفان.

وهذا كان الشعرُ في الربانيَّات والنَّبويَّات قليلَ الإجادة في الغالب ولا يحزنُ فيه إلا الفُحول وفي القليلِ على العشر؛ لأنَّ معانيها متداولَةٌ بين الجمهور، فتصيرُ مبتذَلَةً لذلك. وإذا تعذَّرَ الشِّعْرُ بعد هذا كلِّه فليراوضْهُ ويقاودْهُ؛ فإن القريحةَ مثلُ الضَّرْعِ يدرُّ بالافتراءِ ويجفُّ بالترك والإهمالِ.

وبالجملة فهذه الصناعَةُ وتعلُّمُها مستوفىً في كتاب «العمدة» لابن رشيق، وقد ذكرْنا ما حَضرنا بحسبِ الجُهْدِ ومن أرادَ استيفاءَ ذلك فعليه بذلك الكتاب[1] ففيه البُغيةُ من ذلك.

(٥٩٣-٥٩٤).

❀❀❀

(١) أي «العمدةُ في محاسنِ الشعر وآدابه ونقده» لأبي على الحسن بن رشيق القيرانيِّ فإنَّهُ من محاسنِ التأليف في هذا الباب وقد ذكرَ ابنُ خلدونَ قبلَ قليل بأنَّهُ «هو الكتابُ الذي انفردَ بهذه الصناعةَ وإعطاءِ حقِّها، ولم يكْتُبْ فيها أحدٌ قبلَهُ ولا بعدَهُ مثلَهُ».

وتلك لَعمري شهادةُ صدق من رَجُلِ صدْقٍ صادرةٌ عن دراسة وتمعُّنٍ والكتابُ بين يدَيَّ الآنَ لا يَمَلَّ مطَّلعُهُ ويسأَمَ قارئُهُ فهوَ لمكتبتي كحوضِ السباحةِ لمنزلي ومن عشِقَ السباحةَ كيف ينقطعُ عنها؟!

الفهرس



دفء المشاعر
في الحياة الزوجية
أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي
دار الإيمان
اسكندرية